2276
.9956
.348
1973

2276.9956.348.1973
Ziyadah
Ibtisamat wa-dumu'

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 071970717

ابتسامات ودموع

مي زيادة

إلى العينين
اللتين أطبقهما الموت قبل ان النثرها ، إلى
الابتسامة التي لا أعرف منذ إلا خيالاً ، إلى الاسم
العذب الذي لا ترهن به شفتاي دون ان تملأ عيني
الدموع ، إلى الطفل الذي رحل إلى خالقه وبثم في
عاطفة الحب الأخوي فمي من حلة الدمع وقبلته
وابتسامته ودمعته — : إلى أخي الوحيد الذي
تقاسمه الأثير والثرى
(مي)

Ziyādah, Mary

ابتسامات ودموع

مَي زيَادة

رئيس التحرير : سيمون عواد

مؤسسة أ. بدران وشركاه
للطباعة والنشر
بناية العسيلي – شارع السور
ص.ب ٢٦٧٦ – تلفون ٢٢٩٥٢٠
بيروت – لبنان

2276
.9956
.348
1973

جميع الحقوق محفوظة

كلمة الدار

هذا الكتاب المخطوط لمي زياده دخل إلى المطبعة وخرج منها مخطوطاً . وذلك عملاً بمبدأ نشر الوثائق بخطها الأصلي (تصويريا) على غرار ما فعل ، من قبل ، المستشرق الانكليزي مرغوليوث في كتاب « الانساب » للسمعاني . وإذا كان مرغوليوث قد شاء ان يدرس الوثائق بخطوطها الاصلية ، والشائكة أحياناً ، فكم يغبط أهل كل زمان ان يقرأوا لأعلامهم – في حياتهم وبعد مماتهم – تصاوير أفكارهم وخلجات نفوسهم بخطوطهم .

ففي الأمر قيمة وثائقية ومتعة وجدانية وأخذ بالجوانب الحميمة من عمل التأليف ، بما يتعدى الكاتب إلى الانسان .

وهذا ما يدخل في خط الجمالية العام الذي يميز كاتباً عن آخر .

وأدب مي زياده هو كأدب جورج ايليوت وجورج صاند ومدام دوستال ، باناقته وانوثته ، ناهيك بألوانه الحضارية التي رشحت من شخصيتها ذات الثقافات المنوعة .

وهذا ما يفسر قول أحد الادباء لمي : « أأنت ناقلة مكس مولر إلى العربية أم هو ناقلك إلى الالمانية ؟ »

« في هذه الكلمة التي تخال تملقاً للوهلة الأولى ، حقيقة أولية هي كل قوة الكاتب الوجداني الذي انما نحكم له بالتفوق لأنه أحسن التعبير ليس عما يشعر به هو الكاتب ، بل ما نشعر به نحن القراء . »

في هذا الكتاب هدية لكل مكتبة .

سيمون عواد

8-23-74 13.45

مقدمة الطبعة الثانية

أراني راغبة في تقديم الطبعة الجديدة بكلمة تشير إلى كيفية تقريب هذا الكتاب، وتوضح السبب الذي حملني على استبدال اسمه الأصلي "الحب الألماني" Deutsche Liebe باسم "ابتسامات ودموع" الذي عُرف به لدى قرّاء العربية. وإن أشرع ما يتناول هذه الطبعة من تغيير يبدو في كل جملة تقريبًا، ومن زيادة أثبتُّها في صفحات كثيرة من أغلب الفصول. وإن أشفع هذه التفاصيل بجمل عن واجبات المعرّب وحقوقه، وهو بحث يحتم الواجب على كل من ألمّ من الأدباء بآداب الغرب في هذه السنوات التي شاع فيها نقل آداب أوربا إلى لغتنا شيوعًا كبيرًا.

على أني لا أكاد أذكر الترجمة الأولى إلا وأجد خيطًا من الدماء كأنه آلة وكأن القلم يسقط من يدي لتحدق في الصحيفة البيضاء كأنها آلة

سحيّة تشتهي الوسيط وتسطو عليه أسرارها. ولا يطول حتى تنشق
على صورة المكان الذي أطلقني يومذاك وسماؤه وردت حدود أهوائه. حاك
حفيف الأوراق، وتصفيق الأصبحة، وتغريد الأطيار على الغصون. ألا فاضع
إلى وقع أقدام السائرين في الطريق الحمراء الضيقة المتلوية بين أشجار
الصنوبر صعوداً إلى قمة أشرفت على المرتفعات والمنخفضات يسرة ويمنة
وشرقاً وغرباً. وأنظر جانباً إلى صنين وقد انقلبت ذروته تلوعاً
حول انعكاس الأشعة نفاذاً نورانياً يمر إلى صدر الفضاء بما تدخله
إليه أصداء الغبراء من شكاية وتأوه. تنبثق من جانبه سلسلة
آكام تتثاءب مستديرة، مستطيلة، ناشزة، وتظل في انتقاص وتصاغر
على انسجام حسن دراية حتى تسجد بلوعي الصخور نذر على أقدام السامي.
كأن أعالي صنين أنفذت برسالة إلى البحر لتعود بالجواب علي. والبحر آه!
ترى ماذا يقول ذلك الأزرق الأفيح المائج بهدوء ودلال، كأنه ارجوحة

الأثير تهزها أيادي آلة الهواء لتنوم فيك طفلاً عجيباً وهفت بجمالها السماوات
واقتسمت الأرضين بغامه ؟

نعم ، ها أنذا في ظهور الشوير بلبنان ، وذلك المصيف الهنيء . نحن
في صميم القيظ وقد تقاطر المصطافون حتى ضاقت بهم المنازل والفنادق . والجماعات
التي تباينت أفرادها علماً وتهذيباً وارتقاءً وتنافرت عادات وشياً وأطواراً ،
ها هي تعيش تحت سقف واحد وتتبع في أمور جمة نظاماً فرداً وضع لضيوف
النزل جميعاً . ومن هذا الاجتماع بالغرباء ، ومحاذاتهم آناء الليل وأطراف النهار ،
والجلوس وإياهم حول مائدة واحدة مرة بعد مرة ، وحدة تنشأ وتتشبث بالنفوس
فضلاً عن خبرة موفورة لدرس أخلاق الناس وتمرين ميسور في أساليب
المعاملة والإرضاء .

بيد أني بعد الأحاديث المسلية والضحك والاستئناس أظل في حيرة
بغرائب واسع . أظل متسائلة ماذا يعرف أولئك المتنادمون المتسامرون

المقابلون — من بعضهم بعضاً ، أهل تائقة إلى الوحدة والاختلاء تحت أشجار الحوج الصغير. لذلك سميت في ان يبني لي هذا الكوخ الضيق من خشب الغصون ويسقف بالأعشاب اليابسة ، وليس في داخله من حطام الدنيا سوى مقعد وطاولة نضدت عليها كتب قليلة . وإنما دعي كوخي بالكوخ الأخضر ، لأني جللت جدرانه من الداخل بنسيج أخضر . عدا عن أغصان مخضوضبة حشت عليه وحفرة غضة أحدقت به من كل جانب. هنا تعرفت بمكس مور وكتابه الجميل . تعرفت به في الخلوة لأن الأرواح الكبيرة تتكشف في المحافل العادية ولا تتجلى إلا في العزلة لمن كان على استعداد لتلقي فيض بارك

* * *

كنت أرعى أدرس الألمانية في القاهرة ابان الشتاء ولم نيلني مني سوى عشرين ديناً أو أكثر قليلاً . ولما نزودت بالكتب قبيل الرحيل

أضفت إلى حقيبتي كتاباً ألمانياً لاغير ، هو "حب ألماني" هذا . وقد وقع عليه اختياري لأن السيدة البروتستية التي تتلمذت لي ذكرته بحمدة أثناء تصفح سور المشبع فخراً وسعادة على سهولته ورشاقته . ونسبت هذه الرشاقة وتلك السهولة إلى كون المؤلف عراقياً بفطرته ووراثته رغم اشتغاله بالعلم والبحث ، وإلى كونه انجليزياً بولادته كما صار بعدئذ انجليزياً بزوجته وباستيطانه انجلترا أعواماً طوالاً . فكان له من إجادة اللغة الانجليزية ومعالجتها والتأليف فيها ما عد قوياً في تجريد جملته الألمانية من التطويل والصعوبة والإبهام الملازم لها غالباً عند كتاب الألمان ، لاسيما العلماء والفلاسفة

أنهيت تصفح الكتاب في عزلة "الكوخ الأحمر" ولم أفرغ من الفصل الاول حتى تملكتني روحه الشعرية الفلسفية وأخذت نفسي فتملكت من الاحاطة بالمعنى العام وإن فاتني من بعض المفردات كثير .

وما أتيتُ عليه إلا وعدتُ أراجع قراءته مرات حتى ابتهجت بمحاسنه نفسي المنفردة . وعلى قصر باعي بالعربية التي لم أنشر فيها مقالات ابتدائية قليل ، وهو أني لم يكن لدي معجم ألماني ، استعنت بالعلم والتوطاس لأرسم بعقلي تلك الخطوط البديعة ؛ ولو كان لي مقدرة مكس مولر الفكرية والألمانية لما أفصحت عن حركات النفس بسدها . وقد قال لي أحد الأدباء عندما نشرت « ابتسامات ودموع » في ذيل « الهوية » في الشتاء الماضي ، قال « أنى لك ذا يا ساعة أقرأ ذيل « الهوية » أأنت ناقلة مكس مولر إلى العربية أم هو ناقلك إلى الألمانية ؟ » . في هذه الكلمة التي تخال تملقاً للوهلة الأولى ، حقيقة أدبية هي كل قوة الكاتب الوجداني الذي إنما نحكم له بالتفوق لأنه أحسن التعبير ليس عما يشعر به هو الكاتب ، بل ما نشعر به نحن القراء . وكيف لا نحكم له بذلك وهو الغريب الجاهل أسرار قلوبنا قد اطلع على خفاياها وبسطها لنا وللعالمين . وكتاب « ابتسامات ودموع » من هذا القبيل آية شعر وبراعة . لا يقف على الوصف بل هو مرتبط وهي للنفوس الحساسة

كان ذلك في صيف ١٩١١ وبي تيقظ الفتاة الاول، واستنفر ما
الهامت ازاء المسائل الكونية والعمرانية والروحية، واعجابي المتشبه المتحفز للاهتمام
والتحمس. وبي كذلك فجاءة وحيرة وتردد ها
دكت كتيبتي. كنت اكتب لغير سبب، واكتب للعوامل الدافعة بالاجتماع
الى غاية أو ارادة ليلاً ونهاراً. حتى اذا احتبت الحمى الطبيعية والقيت على انحال روح رافقت
الكآبة صبي واتكالي. الكآبة خاتمة شعور الانسان ازاء الجمال والقباحة، والخير والشر، والعدل
والظلم، والكره والحب، والفوز والخذلان. اليها تنتهي حركات التأثر في جميع مظاهر النفس
كأن لا شيء وراءها سوى البهم والمجهول والظلام الدامس. أهي ناتجة عن شعور المرء بضعفه
قوة العالم وبعجزه عن تحويل الاشياء عن مجراها؟ قد يكون. ولكن الدافع ان التنزه والاناية
في كل عالمية وكل فكر، كما ان كل عمر بشري يختتم بارسال الزفرة وانسياب الجفون
كنت قبلئذ اتيه لا الوي على شيء، ان وقعت عيني على شخص أو طرق سمعي موضوع
نظرت في هذا وذاك نظرة استجارة طلبتي. أما هناك فطفقت ألقي على نفسي اسئلة
منطلقة من جهلي المتغطرس الى الارتواء. من أنا؟ ما هو موقفي في الدنيا؟ لماذا تزعجني
بعض الاحاديث، وتستهويني بعض الوجوه في حين ارتاع لأحاديث اخر وتجذبني وجوه
غيرها؟ لماذا أحب هذه ولا احب تلك؟ لماذا ينفث هذا في روعي وجوب احترامه فاقعد

بتوجيه عاطفة جليلة، إلى موضوع بيتي ؟ بينما ذاك الآخر لا يلهمني غير الهزء والاستهزاء ؟
ماذا يوحي الناس وأوهامهم ؟ لماذا يؤلمني الناس وآلامهم ؟ ومن أين لي ولهم هذه القدرة العميقة
على الحزن ؟ أسئلة تقضي العمر ناشدين عنها أجوبة كثيرة ولا نفوز قبل الموت بالجواب الشافي.

هكذا صار كرسي الأخضر شيئاً اختيارياً، وشرفته نافذة مفتوحة على ميدان
العجائب والغرائب وقد تسنى لي أن استعرض واتفحص بفكري تائهاً عن ماضيه
دون أن يكون تمتع سامع أو مجيب.

الفكر ! ما أعجب الفكر إذا هو مزج بحلاوة العاطفة وغلبت عليه أو شيكة
الخيال ! عشت السنوات الأولى من حياتي دون تفكير، وها قد غدا الجناح الملون
بألوان قوس السحاب يضرب جبهتي لينفتح له فيها كوى، فصار كل موضوع، وكل
شخص، وكل مشهد طبيعي ينفحني بتأملات زرقاء، وردية، ذهبية، فضية،
مادية تحوم حولي تارة، وطوراً تجتمع في متعاونة على إيحائي
إلى روح الآتية. فأكاد أسمع دقات قلبك وصدى أنينك فأدرك أنا
شقية بجهلك واضطرابك وهمومك، وأنه قدر على المختارين من بنيك أن يتألموا
أضعافاً لأنهم لا يقدرون على مقاومة المجهول، ولجميع الطلائع التي تبتدئ

ضربات المصادرة والمقاومة . فلا تضعف عزائمهم ، ولا تكلّ أقدامهم ، وثابرون
على تلمّس السبيل في حالك الظلمات ، ويسيرون إلى الأمام حاملين غنيمة
الجهود الآنية والثقة بتحقيق الآمال

***

والطبيعة ؟ يا لاستهواء الطبيعة وقد انتشرت الأشجار والصخور على
الجبال والوهاد فزدت هناك الأشعة وانسلّت هناك الأظلال ! يا لذيذ
وقد تجمّعت منازل القرى حول قبة الأجراس المنتصبة كالمسلّة ، بل هي
قامت في الوسط كحارس مدّ يمينه نحو العلاء متبهلًا وجثت حوله الرعية خاضعة
خاشعة ! يا لبراعة الطبيعة بالتنوّع في بنائي الجميل ! لقد تصرّفت بجميع فنون
الجمال فهي منه كل يوم في حلّة جديدة وهيئة طريفة . فساعة تفرق
الكائنات جميعًا في أوقيانوس ضياء يبهر الأنظار ويذهل العقول ؛ وساعة تزحف
كتائب الضباب ~~ساعة السحب~~ المنبثقة من أطراف البحار وأقاصي الآفاق وتهجم فيلتقي
السحب المتكاثفة من أقاصي الآفاق فتتشابك ما شاء لها أن تتشابك وتبسط رواقًا
رماديًا في الهواء ، كأن العالم في دور من الدمار . ويقتل النور والحرارة يومًا ، ويزرع
السقوط والكتمان فتصبح آماق كل نسمة ، وكل قطرة ماء ، وكل ذرة هواء ، شاعرة بثقل الوجود
الخطير ، تؤيد بحركتها

الطبيعة ضرورة حتمية وحقيقة كيانية ؛ ويخال الهواء حتى يكاد يثقب الولدان دويًا كانفجاس الجوف . وآنًا تبدو خطوط الموجودات ونبرات الأصوات بوضوح غير عادي ، وتنمو روعة الأشياء كأنها كبرت واتسعت ، وربضت في مجاهلها الأهوال باتفاقٍ فجائيٍّ بين آلهة القدر . فيتولاني افتتان به ينقلب الزمن والمكان حينئذٍ متحركًا أو عبابًا متموجًا يحملني تياره وأنا هيث لا أدري من عوالم الخيال ؛ وأن الحياة بالأنانية الضعيفة المأخوذة بالآنية التي تجهل الغرض من تركيب وجودها ولا تفتأ تذوب شوقًا إلى بلوغ غاية ترغم الاحاطة بها وهي في الواقع لا تعلم ما هي !

وكم خلقت القوة الحيوية غبارًا ذهبيًا أو سيالًا إثيريًا منبثقًا من البحر والجبال والكائنات جميعًا ؛ وكم عبدت الطبيعة عبادةً حارةً خاشعةً كعبادة المتدينين والشعراء والمتيمين ، أولئك الذين يقدسون الحياة خارجًا عن أشخاصهم ومحصورةً في إلهٍ ، أو رمزٍ ، أو أوان ؟ وكم ملأت الدموع عينيَّ شكرًا للحياة ، شكرًا للطبيعة ، شكرًا لجميع الموجودات ، شكرًا لهذا الكتاب الذي تتردد بين سطوره خيالات اليأس والأمل والبكاء والابتسام والحب والموت واللانهاية

اظنني قلت في مطلع الكلام ان القلم سقط من يدي ، وكان
وقعا . ها هو القلم ~~يجري~~ يجري على الصحائف قليلاً قليلاً مستيقظاً تلك
الساعة تباعا كما تتعاقب الصور المتحركة على غطاء المسرح ، وما الالفاظ سوى
رسوم ايمائية لحقيقة . غير ان النفس ~~تتذوقها~~ تتذوقها كمذوق ثمينة
لأنها كبيرة الاثمان في التطور الروحي والفكري مني
« احب الالمان » ؟ كلا ، ليس هذا الكتاب حبا المانيا فقط
بل هو خلاصة بسمات الانسان وعبراته . فسمته « بسمات ودموع » .
فان كان ذلك تزييفا لقدرة المؤلف الواجب اعتباره على كل متهم ، فهو صادق
من حيث اقتناعي الخاص ، أمين للصورة التي ارتسمت منه في نفسي

* * *

ومرت السنون وشاع الكتاب وكادت نسخه تنفد منذ ثلاثة أو
أربعة أعوام فحال دون طبعه اعتقادي بوجوب إعادة النقل من جديد . لأني وان
رأيت بعد دير الى المتنبي بروح الكتاب إلماما يكاد يكون تاما غير اني أضفت طائفة
من الأفكار الجميلة والمعاني الرائقة التي لا يجوز الاغضاء عنها

والآن الهدي اليك ، أيها القارئ ، هذه الطبعة الجديدة
ستجد هذا الكتاب سواء أكنت معلماً أو متعلماً ، فيلسوفاً أو شاعراً ،
سياسياً أو تاجراً ، سعيداً او شقياً ، كبيراً أو صغيراً . ستحيا فيه وبه
كما حييت . ستنمو به وتتوحد واياه حيناً فينتزعك عن ميدان
المزاحمة والمنافسة والحقد والتهكم والكيد والوجد . ستتوحد واياه
~~ستتدفياً~~ ماضيك ، أو مفكراً في حاضرك ، أو متوقباً مستقبلك .
أو هو يمثل لك فصولاً من ماضيك وحاضرك ومستقبلك جميعاً في آنٍ
واحد ، لأن العواطف لا تفنى والقلب لا تدركه الشيخوخة . بل يتبع
طريق العمر جامحاً من يأسه والامه وانتصاره واندحاره خبرةً وقوةً توصلانه
الى سبل جديدة ومعارف مطلوبة . وحسبه ان ينبه فيك
الذكاء الحلو المر من معاني الحب والحياة والموت والابد مات والدموع
وهي ارث بني الانسان أجمعين

(ميخ)

العلامة اللغوي ماكس مولر

نقلت الينا الصحف الاوربية عالماً من شيوخ العلماء الخ [illegible] نقلاً عن المقتطف صفحة ٨٩٤ وما يليها حتى نهاية المقال ويوضع بعده:

(المقتطف عدد نوفمبر عام ١٩٠٠)

مقدمة المؤلف

الرقة التي تلذع قلب من جلس إلى منضدة طالما اتكأ عليها صديق نام الآن في القبر ليستريح - ترى من لا يشعر بهذه الرقة بعد فراق الحبيب ؟ من ذا الذي يحاول فتح أبواب أقفلت على أسرار قد شرع فؤاد ما يختفي وراء هدوء المدافن وجلال ؟

كان ريتسل أحب كثيراً ذاك الذي أجمعنا القلوب على محبته . وهذه صور وأشرطة ، وكتب رفعت بين أوراق العلامات والرموز . من ذا الذي يستطيع الآن تقليبها ليستشف الغاية منها ؟ وهل من يد سخية تلم شمل هذه الوردة الممزقة الجافة وتنفث فيها من جديد روح الحياة وأريجها ؟

كان اليونان يضعون موتاهم على أشلاء نار فيلتهمها اللهيب . واعتاد الأقدمون إيداع النار كل عزيز لديهم ، وإنما النار مستودع أمين

لها تيك الذكرى

كذلك يقرأ الصديق الأثير صفحات لم تقع عليها عيني غير تلك التي أُلهمت إلى الأبد . وإذ يتشبث من خلقها بما يهم العالم يحملها بيد مرتجفة ويلقيها في النار . فيضم اللهيب وديعته هنيهة ولا يطول حتى ينقلب إياها رماداً

لقد نجت الصفحات التالية من مثل هذا المقدور . ولم يكن يراد ~~[illegible]~~ في البدء سوى إذاعتها بين خلان الصديق الراحل . أما وقد وجدت أصدقاء بين الغرباء فهي جديرة بالانتشار في العالم الوسيع . وكان يود ناشرها إبرازها على صورة أتم . إلا أن الأوراق كانت تالفة بالية في الأصل ليتيسر * نشرها بأكملها

ف . مكنس مول

الذكرى الاولى

للطفولة أسرار وخصائص ولكن من ذا الذي يستطيع وصفها ؟

من ذا الذي يستطيع تعليلها ؟ لقد اجتاز كلٌّ منا ذلك العمر الذي تشبه ذكراه ذكرى غابة هادئة مسحورة ، وخبر يوماً فيه فتح عينيه المملوءتين بدهشة السعادة على سماء الحياة الجديدة الفائضة بالروعة . يومذاك لا ندري أين نحن ومن نحن : بل العالم كله يخصنا ونحن ملك العالم بأسره . حياة تتخال دائمة بلا بداية ولا نهاية لا هم فيها ولا ألم . القلوب عندها صافية كسماء الربيع عذبة كعرف البنفسج ، مطمئنة قديسية كصباح أيام الأحد

ماذا يطرأ على الطفل ليضطرب فيه هذا السلام الالهي ، وكيف تنتهي تلك الحياة المشبعة سذاجة وطهارة ؟ ما هي العوامل المحوّلة معاني كيانه ، تميت فيه الشعور بالاتحاد والتضامن وتعلّمه تمييز الفرد من الجمع فينتبه فجأة فيجد نفسه في معترك الحياة وحيداً كئيباً ؟

لا تقل ، يا ذا الوجه العبوس ، ان تلك العوامل هي الخطايا !

أوَهل يجني الطفل اثماً ويقترف ذنباً ؟ بل حريٌّ بك ان تعتقد اننا نحن كلنا
جاهلون ، وما علينا سوى الاستسلام والامتثال
أهي الخطيئة التي تنبت البذرة زهرة ، وتنضج الزهرة ثمرةً ، ثم تفني الثمرة وتذرها
صباءً ؟
أهي الخطيئة التي تحوّل الطيار دودةً ، وتجنح الدودة فراشةً ، وتسحق الفراشة هباءً ؟
أهي الخطيئة التي تكمن في نضج الطفل رجلاً ، وتجعل منه الرأس بشيبه الشيخوخة ،
ثم تهمد الشيخ جثةً ، ثم تدق الجثة هباءً ؟
وما هو هذا الهباء الذي تضيع فيه الصور ؟ ألا فاعترف بأننا لكل شيء
جاهلون وان ما علينا سوى الامتثال والاستسلام !
على انه يحلو التلفت الى ربيع الحياة والقاء نظرة على هيكل الذكرى السوداء
من العمر
أنا في قيظ الصيف ، أو حزن الخريف ، أو زمهرير الشتاء . بل لا بدّ من ساعات
كثيرة تباغتني في الغيب ذاته قائلاً : وانا الآن اشعر بالربيع متيقظاً فيّ !"
هذا ما اشعر به اليوم . وتراني نائماً على نديّ العشب في الغابة
العطرية لأربح جسمي المضنى . انام رافعاً نظري الى زرقة السماء البادية من

خلال الدريقات الخضراء وأفكر «ترى كيف كانت طفولتي ؟»

أهالني ناسيًا كل شيء لأن صفحات الذاكرة الأولى تشبه النواة القديمة المحفوظة في العائلة أي ان ورقاتها الأولى ذابلة متجعدة ملتوية ، ولا تتبين القراءة إلا بعد صفحات وصفحات ، عند السطور المحدثة عن طرد آدم وحواء من الفردوس

طفولتي بعيدة العهد يفوتني كثير من حوادثها ولا أعي أيامها القصوى . أعود بأحلامي اليها ، وانتقل منها إلى الابدية التي سبقتها ، وتظل البداية مبهمة متراجعة أمامي كلما تتبعت فكري القاصر ، لأن فجر الحياة يختفي في ظلمات الغفلة والحداثة . وأنا في ذلك كالطفل يبحث عن نقطة ارتكاز السماء على الأرض فيعود حيثما ينظر وتلبث السماء مجددة آفاقها . فيتعب الطفل وتكل قدماه ولا ينال من بغيته شيئًا على اني ما زلت أذكر أول مرة رأيت النجوم وكانت النجوم تعرفني منذ زمن طويل . كنت في ذلك الحين على ركبتي والدتي ورغم ذلك سرى البرد في جسدي وتملكتني رعشة الخوف — فانتبهت انتباهًا غير عادي لذاتي الصغيرة ورفعت والدتي اصبعها مشيرة إلى النجوم اللامعة . فحدقت وفكرت «بأي لباقة صنعت أي كل هذا !» وعادت الحرارة إلى جسدي واطمأنت استسلمت للنوم

واذكر كيف اضطجعتُ مرةً على العشب الأخضر وكل ما حولي يموج ويهتز ويطن ويهمهم . فاقتربت مني جماعة مخلوقات صغيرة مجنحة ذات أقدام متعددة وحطت على جبهتي وعيني قائلة "ذكرك سعيد" . فصرخت بألم في أجفاني وصرخت منادياً أمي . فجاءت وقالت "يا بني المسكين هاقد لسعك البعوض !" ولم أتمكن من فتح عيني لأرى زرقة السماء . وكانت أمي تحمل طاقة بنفسج نضير فأحسست بالريح المسكن ذي الزرقة القاتمة يخترق دماغي . ومنذ ذلك اليوم ما رأيت باكورة البنفسج إلا انتعشت تلك الذكرى في حافظتي ، فأغمض عيني لعل السماء ~~[illegible]~~ الزرقاء القاتمة تخيم على نفسي مرة اخرى

شفيت فانبسط أمامي عالم لم أعهده يفوق منه الجمال جمال الكواكب ويفضل منه العطر عطر البنفسج . وكان صباح عيد الفصح . فالبيوت والدنيا باكراً فوقفت أنظر إلى الكنيسة القديمة القاتمة ازاء النافذة . لم تكن جميلة كنيسة طفولتي ، انما كانت ~~[illegible]~~ هفة جداً ذات منظر مهيب ، باذخة قبل يعلوها صليب مذهب ، وتبدو أقدم ~~[illegible]~~ جميع المنازل المجاورة

ولطالما تمنيت التعرف بمن يسكن فنظرت من شبك الباب الحديدي . وأطلت النظر مرة فلاح الداخل خاويا خاليا رطبا مقفرا وليس تحت نفس واحدة . وصرت تتملكني هزة كلما مررت أمامه فأعدو طلبا للهرب ولكن في ذلك الصباح ، صباح عيد الفصح ، أمطرتنا السماء في الضحى ثم بزغت الشمس في أبهى حلة من الانوار فرحبت جدران الكنيسة القديمة وتألق سطح المصفح الأشهب ، ولمعت نوافذها الكبيرة ، وسطعت القبة بسناء صليبه الذهبي سطوعا مدهشا تناول كل شيء وهو اليه . وبدا الدور السافل من النوافذ الكبيرة حيا متموجا وهو أبهى من ان يتيسر التحديق فيه . فأغمضت عيني . إلا ان النور الصبيب ما زال يفيض على روحي جاعلا جميع الاشياء لامعة عطرة ترن وتنشد

خلت حياة جديدة تنبض في كأن شخصي الاول تبدل بشخص آخر ؛ واذ سألت عن الاصوات الفخمة المتصاعدة من أعماق الكنيسة قالت والدتي ان هذا نشيد الفصح . لم يتسن لي اليوم معرفة ذلك النشيد الذي فاضت انغامه على روحي ، ولا ريب انه من تلك المزامير الرائعة التي تشربت الى روحي

لوتر الصارمة . ولم أعد أسمعه مرة أخرى . أما الآن فعندما أضع
على موسيقى بيتهوفن أو موزار، أو أجواق هيندل - واحيانًا عندما
اسمع الاغاني لجبال الدولومايت والتيرول - أشعر بأن نوافذ كنيستي
القديمة تتألق بنور باهر ، وان عالمًا جديدًا يتفتح أمامي أجمل من عالم
الكواكب وأعذب من عرف البنفسج

هذا ما علق بذهني من تذكارات طفولتي تتخللها وجه أبي
الحنون وعينا أبي العميقتان ، وحدائق وأشجار وعنب نخلتي الخضرة ، ودالية
تحمل العناقيد الناضجة ، وكتاب جليل تملأه الصور الملونة - التوراة .
هذا كل ما أميزه على الصفحات الأولى من ذاكرتي الذابلة .

لكن ما يعقبه واضحًا جليًا . ارى ملامح الوجوه التي اعتدت
منذ صدري ~~أطفالي~~ وأنادي أصحاب هذه الوجوه بأسمائهم : أبي
وامي ، واخواتي واخوتي ، والاصدقاء والمعارف والمعلمون وبعض الغرباء . .
أواه ! يالحلاوة تذكار ~~ذكرى~~ تركه الغرباء في فؤادي ! ويالعمق
موضع روحي نقشت فيه اسماؤهم !

الذكرى الثانية

كانت على مقربة من بيتنا وراء الكنيسة ذات الصليب المذهب بناية شاهقة
علوها قبب كثيرة. سهرت حتى صوت جيالا بناية الكنيسة ذاك. وكانت قبب
زهباء قديمة كقبب الكنيسة على انك لم تظن فوقها صلبان مذهبة بل قامت على الجوانح نسور
لجينية وخفقت رايات زرقاء على القبة العليا المطلة على المدخل، وقد امتد امامه سلم بمنة
وآخر يسرة وقف جندي يحرس كلا منهما

نوافذ المنزل عديدة تتجلى من الداخل الحرائر القرمزية تتدلى منها الطرر الذهبية
وشجار الليمون المنتصبة في الساحة الغبراء تغطي الجدران بورقها الفضي وتنشر على
الشوارع أريج أزهارها

كثيرا ما رفعت عيني الى هنالك. وعند المساء اذ تطلق اشجار الليمون أعذب
أريجها وترسل النوافذ أبهى انوارها كنت أرى خيالات تجيء وتروح وأسمع انغام الموسيقى
ودة من أعالي القصر. ثم تمر المركبات الى القصر فيتجلى الرجال والنساء ويصعدون الدرجات
بهم شيماء الصلاح والنبل. بينما نجوم الأوسمة تشع على صدور الرجال والورود والرياحين

تبتسم بين شعور النساء . فأفكر أنا في بيتي ، لماذا لا أذهب أنا كذلك ؟ "

أخذني يدًا والدي بيدي وقال ، ها نحن ذاهبان إلى القصر . فتأدب ، واذا كلمتك الأميرة أجب باحترام وقبّل يدها " . وكنت في عامي السادس فوجدت وفي أهل هذا العصر . وكنت أسمع الثناء الكثير على أخلاق الأمير والأميرة صاحبي القصر وما فطرا عليه من ميل إلى الإحسان وعطف على الفقراء ، فضلاً عن عدل وانصاف بهما يمثلان الله تعالى على الأرض في معاقبة الأشرار والمعتدين . فحسبتني أعرفهما ، وحسبت نظير الصورة التي وضعتها لهما مخيلتي . بل هما كانا من معارفي القدماء لا كلفة بيننا . ولا تكلف كأنهما بعض الأعيان وجنودي في لعبتي

صعدت درجات السلم وقلبي يدق بسرعة . وأخذ أبي يوصيني ان أقول "سموك" في مخاطبة الأميرة . ففتحت الأبواب ورأيت أمامي امرأة طويلة القامة ذات عينين براقتين نافذتين ، تخال آلهة تولاً إليها تمد يدها لأضع فيها يدي . ولوجهها هيئة ألفا ذهني ونضف ابتسامة مجوبة تلعب حول ثغرها بلطف . فلم أتمكن من ضبط نفسي . وفي حين ظهر ابي واقفاً قرب الباب ينحني (لا أدري لماذا) انحناءً عميقاً خففت أنا إلى السيدة الجميلة وقلبي يقفز إلى شفتي ، ثم طوقت عنقها بذراعي

وقبلتُ كما أقبل والدتي . فظهر الارتياح في وجهها وداعبت شعري ضاحكة ، إلا ان ابي اشتدَّ بيدي ودفعني بجفاء قائلاً اني صبي شرير واني لن ارافقه مرَّة أخرى . فأخذتني الحيرة هنيهة ثم انطلق الدم الى وجنتي وكدتُ بسهم يخترق فؤادي الصغير وان أبي يظلمني . نظرتُ الى الأميرة استمد دفاعًا فلم أرَ على ملامحها غير الرصانة واللطف . وأدرتُ ببصري في القاعة وفيها من رجال وفتيان ، علّي أجد من يحسّ معي ومثلي واذا بهم جميعًا يضحكون . فرطلت الدموع من عينيّ وجرت نحو الباب وهبطتُ السلم مسرعًا تحت أشجار الليمون حتى وصلت المنزل والتقيتُ بأمي . فرميتُ بنفسي بين ذراعيها والشهيق يقطّع صدري

فقالت « ماذا جرى لكَ يا بنيّ ؟ »

قلت « آه لو تعلمين ! ذهبتُ الى الاميرة فوجدتها جميلة لطيفة مثلكِ يا اماه لم أتمالك ان طوّقتُ عنقها بذراعيّ وقبلتُ وجنتيها »

فقالت « كيف فعلت ! هؤلاء الناس أشراف اما نحن فهم غرباء عنا »

قلت « ماذا يهمني كونهم غرباء ؟ أليس لي ان أحب كل من نظر اليّ بعين ~~حنونة~~ باسمة ؟ »

معقولتين

قالت " لك ان تحب من تشاء يا بني . ولكن عليك ان تكتم حبك ولا تظهر منه شيئاً "

قلت " ان لم يكن حب الاغراب جريمة فلماذا لا يجوز لي ان أظهره ؟ "

فتنهدت امي وقالت " انك لمصيب . لكن عليك ان تطيع والدك . وعندما تكبر سناً وذهباً تعلم لماذا لا يجوز ان تطوق عنق كل سيدة جميلة ذات عينين لطيفتين "

وكان ذلك اليوم كئيباً . عاد أبي الى البيت وكرر الى امي ثرثرة التصرف . وفي المساء بكيت بين يدي امي الى سريري فجثوت وصليت . غير اني لم انم الا بعد أرق طويل مت ثلاثاً من هم الغرباء الذين لا تجوز محبتهم

والوعثاء عليك يا قلب الانسان ! ان اوراقك لتجف في ربيع ايامك والريش يتساقط عن جناحيك قبل الأوان . عندما يبتدئ فجر الحياة في افق النفس فأول ما ينشر فيه عبير الحب . نحن نتعلم السير والوقوف والكلام والقراءة لكننا لا نتعلم الحب ، لأن الحب جوهر الروح وجميع قوى الروح تنادي بأصواتها المختلفة . وقوة الحب أهم أصل غريزة الطبيعة الحب جوهر الروح وجميع قوى الروح تنادي بأصواتها المختلفة . وقوة الحب أهم أصل غريزة الطبيعة في أعماق الكيان . فكما تجذب الاجرام السماوية بعضها بعضاً بالجاذبية الأبدية كذلك تجذب الأرواح المتآلفة بعضها بعضاً وترتبط الواحدة بالأخرى برباط الحب الأبدي . حيوات لا زهرة

ان تعيش بلا شمس وللانسان ان يحيا حياة عظيمة بلا غرام

أليس ان قلب الطفل يكاد ينشق اشماقا اذ تهب عليه من الجفاء النسمات الباردة الأولى في هذا العالم الزئبقي ؟ ولكن هاهب والديه يطل لامعا في الخاطر كأنوار سماوية واشعة الهية

حين الطفل أطهر أنواع الحب وأبعدها غورا وأشملها طبيعة لانه يحتضن العالم بأسره منكبا على كل نظرة ودودة، مهتزا لسماع كل نغمة عذبة . هذا حب عميق زاخر لا قرار له وهو ربيع كنوز لا تقدر وخيرات لا تحصى . وكل من اختبره عرف ان الحب لا يقاس ولا يكال ولا يوزن ، وانه لا زيادة ولا نقصان فيه ، وان الذي يحب صادقا يحب بجملته بكل قلبه وروحه وبمجموع قواه وافكاره

لكن واحسرتاه ! ما أقل ما يبقى من هذا الحب بعد الوصول الى نصف رحلة الحياة ! عندما يعلم الطفل ان في العالم "غرباء" وينهم من هم أولئك الغرباء تنتهي ايام طفولته . فيختفي ينبوع الحب وتشحذ أقدام الاعوام والاختبار . ويوم تتلاشى لمعان العين الطاهرة فتحل محلها خيالات التعب والريب نيظر الانسان الى اخيه نظرة الغريب الى الغريب وتتماشى الدموع في الجفن المزدحم . بمر غير مسلم خوفا ان لا ترد التحية فتتوجع

روحه ، لأن الانسان ذاق مرارة الهجر من أصدقاء طالما بادلهم تحية الود وابتسام الثغاه ولمس الايدي . الريش البري ليس قط عن جناحي النفس ، وتجف ورقات الزهرة ذكي وتتمزق ، ولا يبقى من منهل الحب سوى قطرات قلائل لارواء غليل التائه في صحراء الحياة . تلك القطرات نظل ندعوها حبا . فأين هي من حب الطفل الفياض الجواد ؟

ليس هذا سوى حب ممزج بالشك والهموم وثار الانفعال المضطرم . حب يغني ذاته بذاته كقطرات المطر على الرمال الحارة . حب يطلب دواما ولا يبذل يوما . حب يسأل " ازيدان تكون لي ؟ " ولا يقول " يجب ان اكون لك " . حب يستغرق نفسه ويذيب نفسه ، ويلاشي نفسه ، وهو معذب يائس . هذا هو الحب الذي تترنم بوصفه الشعراء ويتوق اليه الفتيان والفتيات . شعلة تلتهب ثم تنطفي ولا تدفئ ، وتذهب تاركة بعدها الدخان والرماد . جميعنا يفقد ولا يعلم ان هذه الاسهم النارية إنما هي آية الحب الدائم ، ولكن كلما اشتعلت تلك النار وعظم نورها الموقوت قرب خبوها وحلكت ظلمة الليل الذي يتبعها

وساعة يسود الافق ويدلهم حول الواحد منا فيرى نفسه وحيدا شريدا

بين ان ترين يمنة ويسرة دون ان يعيروه لفتة إذن تنهض عاطفة منسية
وتمشي في صدره ذهابا وايابا ، ولا يدري أهي حب أو صداقة ، ويود ان يصرخ لكل من
أولئك الغرباء ، ألا تعرفني ؟ ،

اذ ذاك يشعر بأن الغريب أقرب إلى الغريب من الاخ إلى اخيه ومن
الاب إلى ابنه ومن الصديق إلى صديقه ، ويدوي في طبقات ذاكرته صوت مجهول قائلا ان
هؤلاء ، الغرباء ، أقرب اصدقائنا وأعزهم لدينا وأحبهم عندنا

إذاً لماذا نمر بهم حائرين ؟ ذاك سر لا نصل إلى قراره وعلينا ان نتمثل
عندما يمر قطاران وأنت في أحدهما وفي الآخر وجه يود ان يبتسم حاول مد يدك لمصافحة
الصديق المبتعد عنك قدرا ، حاول ذلك وجربه وربما علمك لماذا يمر الانسان بالانسان
حائرا

قال فيلسوف قديم : رأيت بقايا سفينة أغرقها العاصفة عائمة على صفحة البحر ،
جلد يتلامس ويلتقي الحين . ثم تهب الريح فتفرق شرقا وغربا دون أمل في اللقاء ،
ذلك مصير بني الانسان في بحر الحياة ، ولكن ليس بينهم من شهد غرق السفينة

الذرى الثالثة

غيوم الحزن لا تبقى طويلاً في جوّ حياة الطفل بل تتبدّد بتدفّق من عينيه دموعًا. لذلك عدتُ بعد أيام إلى القصر فأعطتني الأميرة يدها وأتيح لي تقبيلها. وجاءتني بأولادها الإناث والأميرات فأخذنا نتقاسم الألعاب ونتشارك في الملاهي حتى إن الذين يرجع عهد تعارفهم إلى سنوات خلت. تلك أيام هنيئة، لأني بعد تلك المدرسة — ولكنني بدأتُ أذهب إلى المدرسة — كان لي أن أتوجّه إلى القصر فاجتمع برفاقي وبين أيادينا ما يشتهي قلب الطفل من لعبات ودمى كثيرة ما أزينها والذي وراء زجاج الحوانيت الكبيرة، قائلة إلى بائعة الثمن قد تكفي قيمة الواحدة منها لإعالة العيلة الفقيرة أسبوعًا كاملاً. وتلك كتب الصور الجميلة التي ابتعتُ أبي يقلّبها عند أصحاب المكاتب ويقول إلى لا أشتري لغير الأولاد الصالحين كلّ الصلاح. هاهي لي الآن في القصر أتوأها وأتمتّع في ضحاياها طويلات، لأن كلّ ما يخصّ الأمراء الصغار يخصّني — أو بالحري هذا ما أزعمه. إذ لا تقطر حريتي على استعمال ذلك المتاع الصبياني عند أصحابه بل أنا مخيّر في أخذ ما أريد منه إلى البيت وفي التصرّف به. واهدائه إلى أولاد آخرين. وزبدة القول إني كنتُ أشتري أنيابًا بأوسع معاني الكلمة

وكانت الأميرة تلبس يوماً أفعى ذهبية التفّت حول زندها التفاف الحياة والاحتراس . فدفعت بها إلينا لنلاعبها . وعند الانصراف لويت الأفعى حول ساعدي لأرعب أمي في الظلام . فلقيت في طريقي امرأة توسّلت إليّ ان أُريح الأفعى ، ففعلت فتنهدت وقالت انها لو ملكت لخلص بنتاً زوجاً من ظلم السجن . فلم أتردد لحظة في مدّ عنقي ، ومضيت أعدو تاركاً المرأة والسوار الذهبي بين يديها

وحدثت في الغد جلبة وضوضاء إذ جيء بالمرأة إلى القصر تبكي وتنتحب وقد اتهمت بان اغتصبتني الأفعى . فاستشطت غضباً وصرحت بتحمّس وحدة ، انها وهبتني السوار ولا اروم استرداده . لا أدري ماذا جرى بعدئذٍ . على انني صرت منذ ذلك اليوم أعرض على الأميرة كل ما أهملته مع الى البيت

وطال اختلاط

مرّ زمن قبل ان تنقشع افكاري فأدرك معنى خاصتي وخاصتك . وما طال عجزي دون التمييز بين اللونين الأحمر والأزرق . وآه مرة ضحك المعنيين في ذهني كما ضحك مني أصحابي لمثل ذلك يوم أعطتني والدتي نقوداً لابتياع تفاحاً ، أعطتني عشرين بارة وكان ثمن التفاح نصف هذه القيمة . فقالت البائعة بحدة خلته عزيزاً انه لم تبع شيئاً منذ الصباح وليس لديها من النقود ما ترد ، وتمنت ان اشتري تفاحاً بعشرين بارة . فتذكرت ان في جيبي قطعة نقود أخرى من ذوات العشرات ، وسررت ان احل المشكل بنقدها

تلك القطعة قائلاً « الآن تستطيعين ان تؤدي العشر بارات الباقية ». فلم تقاضني المرأة المسكينة بل أعادت إليّ قطعة العشرين بارة واستبقت لنفسها قطعة العشر بارات

كنت أذهب كل يوم اتأمل الأمراء في العابهم واتعلم منهم الرزانة والتيه. ومنذ ذلك الحين أرى صورة ترتفع من أعماق ذاكرتي. تلك هي ابنة الأمير الكبرى الكونتس ماري التي تزوجت والدي اثر وفاة زوجته الاميرة الحالية. تلك الصورة تتصاعد في شفق ذاكرتي بتمهل وابهام. فهي في البدء خيال سابح في الهواء يتشكل ويتكيف قليلاً قليلاً. ثم يقف اخيراً أمام نفسي ناطقاً، كالبدر يشق عجاب الغيوم بعد زوبعة شديدة ويبرز فيبهر وجه الليل. كانت الفتاة أبداً مريضة تتألم حاشة. ولم أرها في حياتي إلا ملقاة على سرير ينقال يحملانه إذا غرقنا رجلان، ويحملانه متى إذا تعبت أو تألمت. هناك كانت ترقد بين الأنسجة البيضاء، تبدو يدها على صدرها، وعلى شفتيها حب الفكر، وانما مليح معقول، وعيناها عميقتان لا قرار لغورهما. فأقف حيالها مشدوهاً وأحدق في عينيها متسائلاً ما إذا كانت هي الأخرى من «الغرباء». فتضع يدها على رأسي وتتملك اعضائي هزة. والبيت جامداً صامتاً بلا حركة ولا كلام، وكل قواي تنطلق من

حدقتي مع تينك العينين العميقتين اللتين لا قرار لهما

كانت تكلمنا نادراً غير ان نظرها يرقب كافة العالم . ولم تكن تتذمر مهما أفرطنا في رفع الصوت والمنار الجلبة . بل تنقل يدها الى جبهتها العاجية وتغمض عينيها كمن يستسلم للنوم . وتشعر بتعب صحتها في أيام الخوف فتستوي فوق مضجعها وترى على وجنتيها زهرة الفجر الباكر . فتحدثنا الأحاديث المسلية وتقص علينا الحكايات المدهشة . لست أدري كم كانت سنها على أنها كانت ماعلاها الطويل وضعفها شبيهة بالأطفال ، يدارونها الجميع ويداعبونها برفق واحترام ويعتنون بها بالملك ، ولم أسمع عنها يوماً كلمة الطيبة . أما أنا فكنت أقف حيالها خاشعاً ، وعندما أراها حاسة بائسة أفكر في أنها لن تعرف يوماً لذة النهوض والسير من مكان الى مكان بمجرد دافع الارادة ، وأنها ليس عليها من عمل تؤديه ولا من مسئولية تتمتع بها بل ان شريرها هذا في الحياة إنما هو رمز النفس في مرقدها الأخير — اذ ذاك أسائل نفسي لماذا جاءت هذا العالم وهي أهل لأن تذوق راحة رضية في حضن الله أو ان تحمل على اجنحة الملائكة البيضاء على ما نراه ممثلا في الصور المقدسة . ثم اشعر بوجوب تعاستها آونة لذة تعاستي وعدها جاهلة ان قرب قلبا يتألم لا يحتمل بعد . ولكن كيف أبوح لها بما يجول في خاطري وانا غافل عن وجودها ؟ كل ما كنت أعلم انه لا يجوز لي ان القي بنفسي على عنقها لئلا اتسبب لها كدراً وغماً فاكتفي بالابتهال الى الله من أعماق قلبي ان يريحها من متاعبها

أُدخلت علينا في يوم حار من أيام الربيع وفي حمية كل الشعوب، أما عيناها فكانتا أشد لمعانًا وأبعد غورًا. فجلست على مضجعها وناديت بنا وقالت "اليوم تذكار مولدي. هذا العيشة معكم طويلة ولكن قد يدعوني الله إليه في القريب العاجل. ولما كنت راغبة في ان لاتنساني تمامًا بعد رحيلي جئت كلاً منكم بخاتم يلبسه الآن في السبابة ويظل ينقله إلى الاصبع المحاذي كلما مرت الأعوام حتى يستقر في الخنصر وهناك يبقى مدى الحياة"

وعمدت إلى خواتم خمسة في أصابعها فنزعتها واحداً بعد الآخر وعلى وجهها امارات حزن عميق يمازجه حب ولين. فأغمضت عيني لئلا أبكي. فأعطت أخاها الأكبر الخاتم الأول وقبلته، ودفعت خاتمها الثاني والثالث إلى اختيها الاميرتين، وكان الخاتم الرابع نصيب الأمير الأصفر، وقبلتهم جميعًا. وكنت أقف قربها محدقًا في يدها البيضاء، محدقًا في خاتمها الوحيد الباقي في اصبعها. ثم استلقت على سريرها منهوكة القوى فتبع حركتها نظري والتقى بنظرها فوهبت بلا ريب ما يدور في خلدي وسمعت ما يهمس به قلبي لأن الحاظ الاطفال شديدة التعبير بليغة المعنى. حزنت لإغاظتها، ولو حاولت مراضاتي الآن ما رضيت ان أنال الخاتم الأخير لأن التخلف انما يدل على اني غريب لا أحبها، وانها لا تحبني كحبها لأخوتها وأخواتها. وحرت تمامًا في قلبي

كمن فتح أحد عروقه أو قطع بعض أعصابه ، ولم أعد أدري أني أوجه نظري لأضع كرسيي

فجلست من جديد ولمست جبهتي مرسلة في عينيّ نظرة الاستعطاف واستقراء

الشعر بأن ما من سرّ في إلا الكتمة الفتاة وما من فكر إلا الأنوثة . وشممت

خاتم الأخير من يدها متمهلة وقالت ، وددت أن يصحبني هذا الخاتم يوم أفارقكم ولكن

البتة أنت فذلك خير وفكر في عندما أصير بعيدة عنكم . اقرأ الكلمات المنقوشة

على الخاتم "حسب مشيئة الله" . أما قلبك هذا فقد أفعم حرارة ورقة ، ألا فلتروضه الحياة

وتنهه دون أن تقسيه !" ثم قبلتني كما قبلت أخوة وأعطتني الخاتم

ما أصعب الوصف وما أعياه ! يومذاك كنت أكاد أكون صبيا فكيف تنفذت قلبي

من سحر ذلك الملك المتألم ولطفه ؟ كنت أحبها كما يحب الصبي — والصبيان يحبون بحرارة

وصدق وطهارة قل منهم من يشعر به في الشباب والرجولة — على أني ذكرت الآن من "الذباب"

الذين حومت على المجاهرة بحبهم ولكني شعرت بتقارب روحينا وتبلاسها بأرق ما تتلاسن

به أرواح البشر . زالت المرارة من قلبي ولم أعد أشعر بأني وحيد ، ولم أعد أشعر بأني غريب عنها

تفصل بيننا هوة أو مرتبة . كنت سعيدا ، كنت فرحا ، كانت روحي تلمس روحها ، فحببت

ثم رأيت استبقاء الخاتم الذي ودت أخذه إلى القبر ، رأيت استبقاءه مع حبها

وحنانها ، وتعالت في نفسي عاطفة طغت على كل عاطفة سواها فقلت قلقا "يجب عليك

الاحتفاظ بالخاتم ان شئت ان يكون نصيبي . لأن ما لكِ هو لي "
فأطالت النظر فيه وجبينها مقطب متأملة ، ثم تناولت الخاتم ووضعته في اصبعها
وقبلت جبهتي مرة اخرى وقالت بصدق العذب الرقيق ، انك لا تدري
ماذا تقول ، إني الغني ، فحاول ادراك نفسك ~~[illegible]~~ لتسعد
ايامك وتسعد الآخرين معك "

الذكرى الرابعة

تجاوز من العمر أعوامًا بمائل تتابع همًّا طويلًا فامتلع جانبيه اشجار الحزن
تحجب عنا استدارة الأفق فنظلُّ جاهلين أي الأنحاء نجوب ، ولا نحفظ من سوى كثيب
الذكر اننا قطعنا من الايام مراحل وتقدمنا في السن . ولهو في حداثتنا بمراقبة المدّ المنبسط
من نهر الحياة فيلوح لنا المشهد واحدًا وان تغيرت منه المناظر وتجددت على الشطين . فاذا
ما بلغنا شلالات الحياة — شلالات الجهاد والعناء والألم — كان عملنا في نفوسنا
شديد الأثر ، وكلما ابتعدنا عنه زاد تعالي ضجيجه وصريرها وضجيجه . حتى اذا اخذنا في
الدنو من أوديتها الأبدية اضمحل في ذهننا معناها ، ووضحت لنا أهميته ، فشعرنا بأن القوة
التي ما فتئت تمدنا بالنشاط والرغبة والحكمة وما زالت تسوقنا الى الامام نحو غاية سامية
انما تلك الشلالات أصلها ومصدرها ، ومنها منهلها الذي لا ينضب

انقضت مدة دراستي ومرت معها أوقات السرور والخلق وذوي من أخلائي
الجملة كثير ، على انه بقي لي ايماني بالله وحسن ثقتي بالبشر . رأيت الحياة شديدة الاختلاف
عما صورته مخيلتي ، ولكن الشؤون بدت لادراكي كبيرة تزينها المعاني الرفيعة السامية . وما

أشكل عليّ وجلب غمّاً وألماً حارتي تقديري أقوى شاهدٍ على ان يد الله تدير الكون
وكان الكون فليس لعقولنا المحدودة ان تحصر تلك الحكمة المتناهية . " لا يقع شيء إلّا
باذن الله وشاهد " غير هذا المبدأ الفلسفي الذي يوضح راحتي وتعزيتي

عدت في عطلة الصيف الى بلدتي . فرح العودة وفرح اللقاء — من ذا الذي يتوهم لذة تتذوقه في ان نرى مرة اخرى ما رأيناه قبل ، وان نجد من جديد ما سبق وعرفناه قديماً ؟ يكاد يكون التذكار سرّ كل تمتع ، وكل متعة قد يكون مأزاه وتسعده وتذوقه لأول مرة ، جميلاً مرضياً لذيذاً على انه يدهشنا بجدته وغرابته فلا نتم الهناء به . لأن مجهود السرور يجيء غالباً أقوى من السرور نفسه . ولكن إذا سمع المرء بعد مرور أعوام نغمة قديمة كان يزعم انه نسي كل نبذة من نباتها فعرفتها روحه وعانقتها كأنها صديق عزيز ؛ أو وقف أمام صورة العذراء ناظراً في عيني طفل تحملها فتنبهت فيه عواطف اعتادها عند هذا المشهد في صغره ؛ أو اشتنشق زهرة ، أو ذاق طعاماً لم يذره منذ زمن الحداثة — شعر بلذة لا يدري

لعلها أهي آتية من السرور الحاضر وحده أم هي مجموعة بين حظ الساعة المارة وتذكارات عهد ماضي

كذلك يعود الطالب إلى وطنه بعد غياب أعوام فتخوض نفسه بحر خواطر تحمله
على الموجات المتنحية نحو شواطئ الأيام الفضية ، وإذ يسمع ساعة البرج تدق يضطرب خوفاً
من التأخر عن ميعاد الدرس ثم يعود من رعب جنوني بانقضاء أيام الدراسة . يرى كلباً يعبر
الشارع هو الكلب الذي طالما لاعبه في الماضي ، وها هو الآن قد كبر وشاخ حتى قام النباح
مقام أنيابه . وهناك بائع السلع المتجول الذي طالما جربنا نفاحاته وما زالت
في حكمنا ، رغم غبار يلتصق به ويغلفه ، أشهى صنوف النفاح في العالم . وهناك
هدم منزل قديم وشيد غيره مكانه . ذاك كان منزل معلم الموسيقى . ما كان أبهج
الوقوف تحت نوافذه في ليالي الصيف والأصدقاء ما يبتدره ارتجالاً للتسلية بعد ساعات العمل
الطويلة ، فتنطلق الألحان كأنها بخار تجمع في نفسه خلال النهار فأنه يقتطعه
ليلقي عنه حملاً ثقيلاً . وهنا في هذا الزقاق الضيق الذي كنت أحاله أوسع قليلاً -
هنا اجتمعت ليلة بابنة الجيران الجميلة . لم أكن فيما مضى لأجرأ على محادثتها والنظر إليها .
على أننا نحن الصبيان كنا نتناقل أخبارها في المدرسة ونسميها «الفتاة الحسناء»
فان رأيتها آنئذ في الشارع عن بعد ، اختطفت لهذه المصادفة دون أن ألهب الدنو
منها . وكان لي مرة في هذا الزقاق المؤدي إلى المقبرة اتكأت على ذراعي وأنا أتبين

ان أسير إلى البيت . مشينا ولم ننبس بكلمة طول الطريق . كنت صامتًا وظلت هي ساكتة ، ولكن سروري كان من الشدة بحيث اني الآن بعد مرور أعوام ، إن ذكرت تلك البرهة تمنيت انقلاب الزمان ورجوع ما لا يرجع ليتسنى لي السير مرة اخرى صامتًا سعيدًا تستند على ساعدي الفتاة الحسناء"

وهكذا تتوارد خاطرة اثر خاطرة حتى تعج موجات الذكرى فوق رؤوسنا ، وتسل زفرة تلفتنا إلى ان الهجس أقلق النظام التنفس منا . فيختفي عالم الاحلام بغتة كما تتلاشى الاشباح عند صياح الديك في الضحى

ولما مررت أمام القصر القديم المحاط بأشجار الليمون ورأيت الحارس على خيلها عند الدرجات العاليات تواثبت التذكارات متلازرة في خاطري والكآبة لدوران الأيام . لم أدخل هذا القصر منذ أعوام عديدة . لقد توفيت الأميرة ، واعتزل الأمير خدمة الحكومة وسكن منزلاً منفردًا في ايطاليا ، بينما انجلت الأكبر الذي نشأت واياه أصبح نائبًا عنه . يقيم في هذا القصر نخبة من شبان الأشراف والنواب يتمتع بحديثهم ويتمتعون ببشرتهم . فكيف لا يحب أصدقاء طفولته غرباء عنه ؟ ومما أرغبني في الابتعاد اني كطالب ألماني ، عرف احتياج الشعب الألماني من حرية وخطأ الحكومة الألمانية

من جهة أخرى ، كنت انضممت إلى حزب الأحرار واعتنقت نظريات المغايرة

للنظريات بلاط الملوك كل المغايرة

نعم ، منذ أعوام لم أصعد على منبر ذلك الدرج . ورغم ذلك الفظ كل يوم

اسماً قطعت صاحبته في هذا القطر ومثلت صورتي في ذهني لا تجافيني . اعتدت فراقه

الجزئي وبعادها لأني نمت خيالاً جميلاً ثقت من أن لا أصل له في الواقع . حارت

ملكي الحارس وذاتي الأخرى ، أحاديث ساعة احارت نفسي ، واستشيرها وأعمل برصيحها .

لست أدري كيف تجسمت في هذا الحد على قلة معرفتي له . ولكن كما أن النظر

يبدع من السحب أشكالاً كذلك حفظت ذكرى فيها الملامح الأصيلة وكونت من

خطوط الحقيقة الضعيفة الواهية صورة كاملة بارزة . أصبح تعاقب أفكاري محاورة

بيني وبينه ؛ وما هو حسن في ، وكل ما انوق اليه ، واسعى في سبيله ،

وأنزه عنه - ، كل ذاتي المثلى كانت تحفظه ، كانت مهداة اليه كما انه

آتية من روحه ، من روح ملكي الحارس الأمين

أقمت في بيت العتيقة أياماً فجاءني في ذات صباح برقية مكتوبة

بالانجليزية من الكونتس ماري ، وهذا نصها :

"صديقي العزيز

"يسعدني أنك ستقيم هنا زمنًا . نحن لم نلتقِ منذ أعوام طويلة .

فإن أردتَ أن نلتقي مرةً أخرى فإني أسرُّ كل السرور بمشاهدة صديق قديم

تجدني وحدي بعد ظهر اليوم في الكوخ السويسري

"لكَ بإخلاص

ماري"

فأجبت فوراً بالإنجليزية أني سأزورها في الموعد المطلوب . ولم يكن الكوخ السويسري سوى جناح من القصر ينفتح على الحديقة ويتيسّر الوصول إليه دون المرور بباقي القصر الكبير . ولما أزفت الساعة الخامسة اجتزتُ الحديقة متغلباً على انفعالي ، مستهيئاً لمقابلة رسمية ، مؤكداً "لملكي الحارس" في داخلي أن لا شأن لي مع هذه السيدة . ولكن ما معنى قلقي واضطرابي ؟ ولماذا لا يوحي إليّ "ملكي الحارس" ما أتطمئن به وأرتاح إليه ؟ أخيراً تشجعتُ هامساً لنفسي بكلمات سخرية بالحياة ، وطرقتُ باباً [illegible] فإذا هو مفتوح

كان نصف مفتوح

وقالت

وجدتُ في الغرفة سيدةً لا أعرفُ خاطبتني بالانجليزية ~~وقالت~~
ان الكونتس آتية في الحال . ثم خرجت وتركتني وحيداً ولديّ الوقت الكافي لألقي نظرةً على
ما يحيط بي

كانت جدران الغرفة من خشب السنديان يدور حولها نقشٌ بارزٌ فيه ورقيات
اللبلاب وتصاعدت معرّشةً في السقف . لذلك كانت الطاولات والكراسي وأرض
الغرفة من خشب السنديان وقد تحاذى فيه الحفر والنقش . وتتوزع هنا وهناك كثيرٌ
من أمتعةٍ ألفتُها في غرفة العائلة القديمة وقد أُضيف اليها أمتعة جديدة ، لاسيما الصور والرسوم .
وكانت هي الصور بعينها التي اخترتُها لتزيين غرفتي في الجامعة : فوق البيانو صور بتهوفن
وهيندل ومندلسزهن ؛ وفي احدى الزوايا ~~[illegible]~~ زهرة ميلو وهو في تقديري
أتمّ وأبدع تمثالٍ أبقته لنا المدنيّة القديمة . وعلى الطاولات كتب ذاتي وشكسبير وجمعية
مواعظ فنلون ، وكتاب "اللاهوت الألماني" ، وأشعار روكرت وتنسن وبورنز ، وكتاب
كارلايل "الماضي والحاضر" ، وهي الكتب نفسها التي كنتُ أقلّبها قبل ان اجيء الى
هذا المكان . فاجتذبتُ الى دائرة التأمل ، بيد اني حاولتُ التملص منها ووقفتُ أمام
صورة الاميرة المتوفاة . عندئذٍ فتح الباب ودخل الرجلان اللذان عهدتهما في حادثتي

يحملان الدنس على سريرها

يا لعذوبة تلك الرؤيا ! كانت حانية لا تتحرك وتبقي وجهها هادئاً كصفحة البحيرة حتى غادر الرجلان الغرفة . اذ ذاك حدقت نحوي عينيها - تينك العينين القديمتين اللتين لا يدرك غورهما - وتألق وجهها فانقلبت كل هيئتها ابتساماً. ثم قالت " كنا صديقين ولا اظننا تغيرنا في صداقتنا . لذلك لا يمكنني ان أقول " انتم " وحيث ان العادة لا تسمح ان أقول " انت " بالألمانية فلنتخاطب بالانجليزية !!. أليس كذلك ؟"

لم أكن أتأهب لمقابلة كهذه . رأيت ان لا تمثيل هنا ولا مجاملة ، ولا رياء . هنا روح تتوق الى روح اخرى . هذا ترحيب صديق عرف عيني صديقه. وراء قناع الوجه العارية وراء التستر الاتفاقي . فأخذت يدها التي مدتها الي ، وقلت ، من حادث الملائكة لا تقول " أنتم "

ولكن ما أعظم قوة كمنت في قوالب الحياة واصطلاحاتها ! وكم يتعذر التكلم بلغة القلب حتى مع أشبه الأرواح بأرواحنا ! تعذر ذلك فاضطرب حديثنا وتضعضعت أفكارنا وشعرنا بارتباك مزعج حاولت التخلص منه بما حضرني من الكلام فقلت :

---

(١) الألمان كالافرنسيين لا يستعملون ضمير المخاطب المفرد " أنت " إلا بين افراد العائلة وبين الاصدقاء الأحماء . أما الانجليز فيخاطبون الجميع حتى الأقربين بالجمع . ولا يستعمل عندهم المخاطب المفرد . أنت ، إلا في الصلاة والشعر وما نحوه من مناهج البلاغة (المعربة)

" لقد اعتاد الناس عيشة الأقفاص منذ الحداثة. فإذا ما وجدوا نفوسهم فجأة في الهواء الطلق لا يجرؤون على تحريك أجنحتهم ويتخوفون الاصطدام بالصخور التي هم حلقوا في الفضاء الوسيع ! "

فقالت " هو ذلك ، وهو عين الصواب وليس نقيضه بالممكن . لا ريب اننا نود أحيانا ان نكون كالاطيار أحراراً نتنقل على اسجار الغابات ونلتقي فوق الاغصان ونغرد سوياً ثم نفترق دون ان يعرف أحدنا الآخر . ولكن اذكر ياصديقي ان بين الاطيار غربانا يؤثر تجنبك . ولعل حياة كالشعر : فكما يحسن الشاعر سبك المعاني الجميلة والحقائق الخالدة في قوالب معينة كذلك على الناس صيانة حريتهم الفكرية والوجدانية عن قيود المجتمع ودون الايذاء بأو التطاول عليك ".

فأجبتُ مستشهداً بقول الشاعر بلاتن " أي شيء أثبت نفسه خالداً في كل مكان ؟ ذاك هو الفكر الحي في قيود الألفاظ " (١)

---

(١) "Denn was an allen Orten
Als ewig sich erweist?
Das ist in gebundenen Worten
Ein ungebundenen Geist."
Platen

فابتسمت الفتاة ابتسامة خفيفة وقالت « نعم . ولكن لي من أبي ووحدتي ما يحول بيني وبين ما أفكر على سوائي . وكم أشفق على الفتيات والشبان الذين لا يرتبطون فيما بينهم برابطة الصداقة والائتلاف إلا ويفكرون ، أو يفكر لهم ذووهم ، بدنو الحب أو ما يسمونه حبًا . الفتيات يجهلن الجمال المختفي في نفوسهن وقد يكفي لاظهاره حديث جدي رصين مع صديق نبيل . والشبان يتعشقون فضائل النفوس ويمرنون نفوسهم على المحامد والمكارم إذا شغلوا بمراقبة امرأة تحوم حول جهودهم وتنابذ الحرية كانت أنم علنية . ولكن للأسف ذلك لا يكون . لأن الحب لا يلبث ان يقتحم الميدان . الحب أو ما يسمونه حبًا : أي ضربات القلب المتسارعة المتباطئة ، وعواصف اليأس والرجاء ، والتلذذ بالوجه المحبوب والتصورات المرضية — وقد يرافق هذه غايات والمماع جمة . تراهم كلا متعاونة على اخلاق ذلك البحر الهادئ العميق ، بحر الصداقة ، وهو صورة صادقة للحب الانساني الطاهر »

صمتت هنيهة فبدا لاحت على وجهها امارات الألم ، ثم قالت ، حسبي اليوم كلاما فطبيبي لا يسمح لي بالاطالة . والآن أرغب في سماع تلك القطعة الموسيقية لمندلسون — النغمة المزدوجة — وكان صديقي الصغير يعزف جميلاً فيما مضى ، أليس كذلك ؟ »

لم أجرؤ جوابًا لأني عندما صمتت وطوت ذراعيها على صدرها

كالعادة رأيت في عنصرها ذلك الخاتم الذي اعطيتنيه يومًا ثم رددته اليك . وكان تلاطم أفكاري يحول دون البيان . فجلست الى البيانو وعزفت ما حيّرت . ولما فرغت التفت اليك وقلت : هكذا لو أنيل الانسان قدرة الافصاح بالنغمات الموسيقية من غير ألفاظ !" .

فقالت : ذلك واقع لا يحتاج الى التمني . ولقد وعيت كل ما تهمس به هذه الألحان . غير اني لا أستطيع استماع غيرها لأن ضغيني يزايد يومًا فيومًا . على الواحد منا ان يقبل بالدهر كما هو على علاته ، ولنا كلمة مسكينة عسيلة تسلي ان نتوقع بعض الحلم من صديق مثلك سنجتمع ثمة ، غدًا في الساعة نفسها . أليس كذلك ؟"

لمست يدها وهممت بتقبيلها . ولكنك أوقفت حركة يدي وضغطت عليها قائلة : هذا غير . الى اللقاء !"

الذكرى

يتعذر عليّ التعبير عن أفكاري وعواطفي بعد عودتي إلى البيت . هناك «أفكار بلا ألفاظ» (١) يعزف الإنسان لنفسه ألحاناً خطيرة . لم أشعر بفرح ولا بحزن بل بدهشة فائقة . وصار مثل الهواجس والتصورات المنحرفة ضميري كمثل النباتات الباطنة من الجوّ على الأرض ما أدركت غايتها إلا بعد الانطفاء والاستحالة إلى حجارة سوداء . وكما نقول لأنفسنا في الحلم أحياناً «إنك تحلم» كذلك قلت لنفسي «إنك يقظان . وهذه هي» .

ثم حاولت استجماع خواطري ولم أشعث فكري بقولي «إن لفتاة لطيفة زكية الجنان وقادة الذكاء» . وأخذتني نحوها شفقة وطفقت أحصي ما فيها من هنيئات وقضايا في هذه الدقيقة . لكن لا، لا . لم تكن هذه سوى سوانح عبرت لباب خاطري ، وذلك الباب ان هو إلا هذه الفتاة هي منتهى ما بحثت عنه ، وفكرت فيه ، ورجوته ، وآمنت به إلى الآن . هذه نفس بشرية عذبة كصباح الربيع ، عطرية كهذا النفنج ، لامعة كالواحة الكواكب . لقد تبينت منذ النظرة الأولى فيها المعنوية وكل ما أودعت من بدع وثناء

---

(١) في هذه الاستعارة تلميح إلى مجموعة قطع موسيقية لمندلسون المذكور في الفصل السابق واسمها «أغان بلا كلمات» Lieder ohne Worte . قطع غاية في العذوبة الموسيقية الكئيبة الشجية . منذ الدقيقة التي قال بطل الرواية في آخر «الذكرى» الماضية انه عزف (المعربة)

لأن الوحيين تعارفا
ورحب كلٌّ منا برفيقه [illegible] . خيل إليّ ان "ملكي الحارس" مضى وتلاشى ؛ وحاولت
انا الحالمة فلم تجبني نفسي إلاّ بما [illegible] ان في العالم مكانًا واحدًا أجدهُ فيه.
وبدأ لنا عيش رغيد ؛ إذ [illegible] نجتمع كلّ مساء ، فنذكر بمانة هذا قتنا ونروح
وأضحى ضمير الجمع "انتم" [illegible] بيننا فعمدنا بالمخاطب المفرد "أنت" نستعمله كأننا لم نفترق
منذ الطفولة أصلاً . لم تصف عاطفةٌ إلاّ زادت خيالاً في نفسي ولم ابسط فكرةً إلاّ
اتى بمصادقة كمن يقول "هذا فكري أيضًا" . كنت سمعت أعظم [illegible] اساتذة الموسيقى
في عصرنا يرتجل وشقيقته الحانًا على البيانو [illegible] فأذهلني ان يتآلف فكر شخصين اثنين
ويتوحد شعورهما فيوضحان الأمر الموسيقي في آنٍ واحدٍ على أتم انسجام لا تخونهما
شاردة ولا تشذ في ابداعهما واردة . أما الآن فقد [illegible] اتبع فكري فأدركت . اتبع
فكري فعلمت ان روحي لم تكن فارغةً مدفقةً قاحلة ، وانما توهمت كذلك لاحتجاب
الشمس عنها وهي وحدها كفيلة باخراج البراعم والازهار الى الوجود والحياة . ورغم
ذلك كان الربيع حزينًا وفيت منه فوق نفسنا أوشحة رمادية لأن شهر مايو ورونقه لم يثنيا
ان الورود شريفة الحسب وان كلّ مساء ينزع من زهرة اجتماعنا ورقةً . شغفتني حبًا الى الشعور بذلك
وذكرته يومًا دون ان تبدي اشفاقًا أو ألمًا . فانقلبت احاديثنا جدية هادئة تنيلاً كلّ مساء
رصانة وجلالاً [illegible] فقالت ، ظننت الموت قريبًا عندما اعطيتك الخاتم ، ولم اتوقع
قبل أودع مرة ان أعيش كل هذه السنوات . ولكني عدت وتمتعت

بالجمال كثيراً . كذلك تألمت شديداً . إنما المرء يشقى هذا في السعادة . والآن وقد قربت ساعة الفراق فعلّ دقيقة تواري كنوزاً . مساء الخير . لا تبطئي غداً "

دخلت عليه يوماً وعندها مصوّر ايطالي . كان حديثها بالايطالية ومع انها كان أقرب إلى العامل منه إلى الفنان كانت لهجة لطيفة ودقيقة يخالطها شيء من الاحترام . فتجلّى لديّ عندئذٍ شرف الخفي أي شرف النفس لا شرف المولد . ثم قالت بعد ذهاب المصوّر " أريد ان اريك صورة أعلاه في قصر اللوفر في باريس . فأنا وصفت فرغبت ان تنقل لي " . ثم ارتمت على الصورة وانتظرت حكمي . وكانت تلك صورة كهل في الزي الألماني القديم ، تلوح على محياه شيما التفكير والاشتمال لقوة علميا وقد بدا أهمية وداوخاع جسمه معنى الحياة الأمين فلم ارتب قط في انه عاش يوماً ولم تبدعه مخيلة مصوّر . كان اللون مغلباً في الصورة النبيّ القاتم على ان الجزء الخلفي استوحى مشهداً طبيعياً نيراً وظهرت في الافق اشعة الفجر الآتي . لم يذهلني من تلك الصورة شيء إنما أوحت إليّ عاطفة هادئة استطعت بعدُ التعريف في الرسم طويلاً . فقلت " لا صدق يفوق صدق الهيئة البشرية . وان رافائيل نفسه ليعجز عن إبداع صورة حادثة كهذه إن لم يكن صاحبها يوماً "

أجابت ، صدقت . اما الغرض من هذا الرسم فهاكه : قرأت وصفه فعلمت
ان اسم [illegible] رسمه مجهول كما جهل اسم الأصل الذي نقل عنه ؛ لعلّه من فلاسفة
القرون الوسطى . فرغبت فيه ليتهيّأ به بعض الصدر في غرفتي . ولما كان مؤلف
"اللاهوت الألماني" مجهولاً وليس لدينا منه صورة ارتأيت ان صورة وُضعت لشخص مجهول
بريشة مصوّر مجهول يصح ان تنوب عن مؤلف مجهول . فان وافقت عليها بين
أولاي ودعوتُه "اللاهوت الألماني"

قالت ، فكرة غاية في الحسن . ولكن ربما شئت شخصاً أقوى من دكتور فرنكفورت
الصورة
وأعبس وجهك "

قالت ، ربما كان ذلك . ولكني انا الفتاة المتألمة ان نزرة إلى المدى استقيت من هذا الكتاب
جوهر المسيحية
قوة وتقوية ، ولمؤلفه عليّ فضل كبير لأنه أعلن لي ان
العجيبة . فاستغنيت ازاءه حرة في ان اومن أو اجحد لأنه لم يرغمني على أحد هذين ، وقبض عليّ
بشدة ، فخيل إليّ اني ادركت معنى الوحي للمرة الاولى . وانك تعلم ان
عن ولوج باب المسيحية [illegible] ان التعاليم تُبسَّط امامنا كوحي علينا ان نؤمن به
دون
قبل ان يهبط الوحي على نفوسنا . ولطالما قلقت لذلك : لست اعني اني شككت في حقيقة

الالوهية وفي الوهية عقيدتنا . غير اني لم اكن لأكتفي بايمان خلعه علي الآخرون وحسبة ان ما تقلمته وتقبلته طفلة على غير فهم واختيار لا يستطيع ان يكون خاصتي ولي . الايمان لا يُعار واليقين لا يُستعار ولا يجدي النمويه نفعا . ولا بد من اقتناع شخصي نستند عليه ونتعزى به . اذ لا احد يحيا ويموت عن أخيه "

قلت "لا ريب ان كثيراً من المنازعات العنيفة والمناقشات الحادة ترجع الى ان تعاليم المسيح عوضاً عن ان تكتسب قلوبنا سهلة فسيحة بلا مقاومة كما تملكت قلوب الرسل والمسيحيين الأولين فاننا نجابهها منذ حداثتنا كعقائد كنسية قوية لا تقبل تردداً ولا ترضى عجالاً وترغمنا الى الامتثال لأوامرها امتثالاً مطلقاً تسميه ايماناً . فلا بد من ابتئاق الارتياب عاجلاً أو آجلاً في كل نفس تميل الى التأمل وتجلّ الحقيقة . وعندما نصل الى تلك الخطوة من السبيل فيتيسر لنا تحرير ايماننا المستعار المزعوم ، تنتصب في وجهنا اشباح الشك والالحاد والكفر وتوقف فينا نمو الحياة الجديدة "

فقاطعتني قائلة ، قرأت حديثاً في كتاب انجليزي ان الحقيقة ستتجلى بالوحي وليس الوحي ليتجلى الحقيقة . واني لأشكر بذلك تمام الشعور لدى قراءة "اللاهوت الالماني" . وأنت فعرفت بقوة حقيقته القاهرة وأُرغمت على الاستسلام .

أوحيت الي الحقيقة ، بل اوحيت أنا الى نفسي ؛ وفهمت للمرة الاولى معنى كلمة
إيمان . أصبحت حقيقة ملكي بعد ان أطالت التمحيص مني لأن أقوال المعلم المجهول
احترقت كياني كشعاع الضياء وأنارت خفاياي جاعلة حيرتي اقتناعاً ، وظهرت
المبهمة ايضاحات جلية . فصممت على قراءة الاناجيل كما لو كانت هي الاخرى مكتوبة
قلم المعلم المجهول ؛ وأبعدت عني ما اقتطعت كذلك معاناة من الروح القدس
باعجوبة الى الرسل ، واذا صدق عليك من مجامع الاثنتي عشرة والاحبار فاحتضنته
الكنيسة باعتبار انه الآية الوحيدة العليا للدين المنقذ الوحيد . عندئذٍ بدأت
الكنيسة مع معنى الايمان المسيحي معنى الوحي المسيحي "

فقلت : من الموصلات ان اللاهوتيين لم يفلحوا بعد في عمل البشر
على جحود كل عقيدة كائنة ما كانت . ولكنهم فالحون يوماً
ان لم يحتج المؤمنون بعزم قائلين : لكم ان تبلغوا في شروحكم واحكامكم هذا الحد
ولا تتجاوزوه " . لكل دين حاجة الى الدعاة ، ولكن لم يتقبل الى الآن دين
واحد في العالم لم يزينه الكهنة سواء أكانوا برهمة أو لاما(١) أو كتبة وفريسيين .

---

(١) "لاما" هو اسم كهنة البوذيين

يتخاصمون موردين شواهدهم وحججهم بلغة لا يفهمها من ابناء ملتهم عشر واحد من عشرة أعشار . وعوضاً عن ان يستوحوا الانجيل مرشدين الاخرين الى استحالة ترجمتهم يجادلون لاثبات صحة الانجيل وعصمته لا من حيث هو انجيل إنما لأنه دونه قوم سلاميون . وهل يكون ذلك سوى حيلة من حيل التردد والقصور ؟ وبأي حجة يثبتون الهام اولئك الافراد الى تلك الدرجة العجيبة ان لم ينسبوا الى انفسهم الاما اعجب واوهى ؟ لا شك انهم وضعوا هذا الافتراض لذلك قصروا موهبة الالهام على آباء الكنيسة المتألفة منهم هيئة المجامع . غير ان هذا التحديد لا يأتي بالجواب المطلوب . إذ كيف نتأكد انه بين خمسين جداً واسقفاً ٢٦ كانوا سلاميين و ٢٤ لم يصلهم من الالهام شيء ؟ يجزم المتطرفون اليائسون بأنه ينبغي ان يلتمس الالهام بدء في شخص ما لينتقل اليه الوحي والعصمة من الغلط ، ويوقنون ان العصمة والوحي انما حفظا في رأس الكنيسة (أو في رؤوسها) الى ايامنا بهذه الوسيلة . ويعتقدون ان عصمة أولئك الآباء الذين لا نعرف منهم شيئاً تقضي على كل اقتناع صميم فينا بالبطلان وعلى كل استسلام أكيد بالفساد ، وتنكر كل بحث من ابحاثنا ان لم تتفق مع بياناتها وأحكامها . ورغم كل ذلك يبقى

السؤال القديم في انتظار الجواب : كيف يدري فلانٌ ان فلاناً يحبه لو لم يكن
لديه مثل ذلك الالهام على الأقل كهذا ان لم يحبني أو في وأشمل ؟ ألا يتحتم علينا
حيازة الوحي في ارواحنا لنكتشف آثاره عند الآخرين ؟ ؟

أطرقت لحظة ثم قالت ، يصعب الجواب . ولطالما كدت في كيفية استجلاء
معاني الحب والتثبت من حقيقته ؟ . كيف ندري ان شخصاً يحبنا أو لا يحب ؟ توجد الآن
في الدنيا واحدة من اثنتين إما كانت عرضة للتزوير والتضليل . فاهتديت أخيراً
إلى ان المحب وحده يميز بين الصادق والكاذب من تلك العلامات ، وانه انما يثق من حب
القلب الآخر لأنه واثق من حب قلبه . ولما كانت موهبة الحب شبيهة بموهبة الروح
القدس (الوحي) كان الملهمون وحدهم الذين سمعوا الرياح العاصفات يحيطهم أحياناً
من السماء ، وان أبصروا ذوات القرنفل زعمها السنة نارية . والآخرون يخافون
أو يغضبون ، أو يسخرون قائلين ، كلام عتيق ! أما نحن فنقرأ ملاك بحرة
جديدة » . بيد اني أعود إلى ما أسلفت وهو ان كتاب « اللاهوت الالماني » هداني
إلى ايمان استخرجته من حاجات نفسي فوجدت قوتي القاطعة في ما يراه غيري
خطأ وعيباً ، وهو ان الأستاذ لا يبسط رأيه كقانون منظم بل ينثر أفكاره كالزارع
املاً ان تقع بعض البذور على أرض صالحة فتضاعف الغلة الوفا . كذلك أستاذنا

الالهي (المسيح) لم يحاول ~~تعليمه~~ إنجيلات بالبرهان تعاليمه (لأن من حدس الحقيقة الكلية استخف بالمظاهر
وأعرض عن جميع ضروب المباهاة والتعنت"

هنا ذكرت شواهد متبينة وأدلة في "اخلاقياته" وطالما فكرت في
ان ذلك اللوذعي ما اكثر من شد خيوط شبكته الفلسفية إلا لشعوره بضعف مذهبه
ووهنه. فأجبت محدثتي، نعم. غير أني على ما أوحاه إلي اللاهوت الألماني
من الخواطر المفيدة لا يسعني إلا الاقرار بأني لا أرى كل اعجابك بهذا الكتاب
ينقصه في نظري العاطفة الانسانية والطلاوة الشعرية، لاسيما وانه خلا من عبارة
القلب وجحد الواقع ولم يحدثه. روحانية القرن الرابع عشر لا تصلح عندي لأن تكون
اكثر من درس نظري يتحتم ان تعقبه العودة إلى الحياة العملية بعزم وجرأة، إلى تلك
الحياة الواقعية التي عرفها لوثر وعالج منها المصاعب. لا غنى للانسان عن ادراك معنى
العدم، ولو مرة في عمره، ليعلم انه ليس بشيء، وان أصوله بدائية وذاته ثانية عريقة في
أصل يتعالى عن الحدس ويجل عن الحصر. وهذا الاتجاه نحو الله ان لم يقدنا في الحياة
إلى كعبة آمالنا فهو يبقى في نفوسنا وجداً مقيماً إلى مرجعنا وستقرنا الأبدي. ولكن
البون شاسع بين هذا النوع من العبادة وبين انكار تحقيقة الوجود الذي ~~يجاهد~~ كما ينفعل الروحانيون؛

ولكن ذلك الإنسان من الإنسان أي من الله وحده ، فهو عاجز عن العودة إلى الإنسان بقوته الذاتية . والتلاشي الروحي الذي يكثر "تاولر" الألماني من ذكره لا يفضل "النرفانا" أو الفناء الهندي الذي يقول به البوذيون . تاولر يحرص بأنه لو استطاع حباً بالله واطراداً لخضوعه أن يفنى فناءً لما تردد في أن يسجد أمامه تعالى ويتلاشى في عمق أعماق الألوهية إلا أن الخالق لم يرد فناء هذه الخليقة التي أوجدها . وقد قال القديس أغسطينوس أنه "في اقتدار الإله أن يتجدد الإنسان ولكن ليس في مقدور الإنسان أن يستحيل إلى الإله" . فلا بأس بارواء هذه النزعة درءً يفيد ونظرية تثير ، بل ترهف النفس وتلطف وتزداد تألقاً . انما ينبغي أن لا تبخس القوى والملكات على نحو ما تفعل النار بالماء غلت في القدر . ومن أدرك العبد في نفسه عظمة بارئه علم ذلك أن يؤمن بأن ذاته إن هي إلا انعكاس الذات الإلهية الكبرى جاء في "اللاهوت الألماني" :

" ليس كل ما تدفق من منهل الكمال بالجوهر الحق وليس له من جوهر في غير الكمال . ما هو إلا حدث أو بناء ، أو مظهر حسي . ليس هو الجوهر ولا جوهر له إلا في النار مبعث النور ، كما أن شعاع الشمس ضوء الشمعة

" ولئن كان ما فاض من الكيان الإلهي كلهيب النار إلا أنه لا بد أن يكون حقيقة الهية في ذاته إذ قد يستحيل الإنسان نفسه ، وما هي

النار بلا لهيب، والشمس بلا نور، والخالق بلا خليقة ؟" وقيل ان الطامع في استجلاء هذه الغوامض وتفهم حكمة الله إنما رغبته هذه رغبة آدم والشيطان

"حسبنا علماً اننا نفوس الكائن الالهي لنجتهد في صقل مواهبنا حتى يوم الكمال. ليستحيل اخفاء النور الالهي من نفوسنا تحت الكمال، فلندعه اذاً يلمع ويشرق ويضيء محيطنا ويبعث فيه الحرارة، لنشعر بان دماءنا تطهرها نار الحياة. واذ يحل فينا معنى قدسي رفيع يقوينا على اقتحام معارك العالم، وتذكرنا أعذب الواجبات علاقتنا بالله، لا يلبث ان يصبح الأرضي في تقديرنا سماوياً، والزمني أبدياً كأن حياتنا بأكملها حياة فيه تعالى". ليس الله الراحة الدائمة بل هو حياة الراحة الدائمة. وانجيلين سيزيس نخطئ بزعمه ان الله لا ارادة له، في قوله:

"نحن نصلي، إلى الرب الهنا لتكن مشيئتك المقدسة!"
ولكن اسمع وع، أيها المبتهل: لا ارادة لله لأنه الراحة والسكون"

كانت الفتاة تصغي إليّ بهدوء وانتباه. فتأملت دقيقة ثم قالت "القوة والصحة ضروريتان لمن كان له مثل اعتقادك؟ وفي الارض نفوس متعبة تعاني رهقاً شديداً وتصبو إلى الراحة والطمأنينة لأن وحدك تثقل عليك. ليس ما تودان

إلى احضانها فلا يحس العالم بذهابه ولا تأسف هي لفراقه. تلك النفوس تتعزى في هذه الدنيا بالاتحاد بالله والاستغراق في ذاته الصمدانية؛ وهي تفعل ذلك بدقة إذ لا رباط يربطها بالعالم وليس لها من الاطماع ما يزعج وتعلق. فتتوق إلى الراحة وتراها - كما يراها الشاعر الالماني - الخير الأسمى وترى الله راحة والراحة فيه. ثم اني أجد ظالما في نقد «اللاهوت الالماني» لأنه ان قال ببطلان الحياة الأرضية فهو لا ينادي بوجوب حذفها. ويقول في مكان آخر ان السكينة والراحة لا يلقاهما الانسان قبل الموت، إلا أنه بارتقائه الروحي يصير شبيهاً بيد الله، لا يأتي أمراً بارادته الذاتية بل بارادة الله، كأنه عز وعلا اختاره ليكون فيه. ويقيني ان من امتلأ بروح الله شعر بتلك الحرية الالهية فيه، غير انه لم يكتم هذا السر الجميل في نفسه كما كتمه العاشق عن الملأ اسرار غرامه. اما انا فطالما شدت باني كنبوة الحور المنتصبة امام نافذتي. حيث كنت في الماء، لا تهتز ورقة من ورقاتها ولا يتحرك من أغصانها غصن؛ وعندما يمر بها نسيم الصباح فتنشر أوراقها يظل الجذع راسخاً هادئاً. واذ يعود الخريف وتتناثر اوراق كانت بالامس مفعمة حياة فيعتريها الذبول يبقى ذلك الجذع في مكانه بلا حراك يترقب مجيء ربيع آخر...»

ثم

لقد ألفت الفتاة هذه الحياة الروحية فحاولت اخراجها في

أليس اني أنا الآخر لم أفلح في التملّص من هذا العالم السحري إلّا بعد جهد ؟
عنيف ؟ ومن يجزم بأنه ليس هو النصيب الأفضل الذي لا يفنى وانا لسنا بخالدين
نحن الذين نعدو لاقتناص منافع تحطّ منا الهمة وتذلل القلب وتقوض الروح ؟

وهكذا كان كل اجتماع يثير مذاكرة جديدة تكشف لي وجهاً مجهولاً
من نفسٍ لا تُسبَر ولا تُحَدّ . لم يكن حديث سوى تفكير واحد ينسجان
كلاماً مسموعاً بدلاً ان يتعاقبا في وحدة الوجدان . ولم تكن آراؤها آراء بل اجزاء
حية مني عاشت معي أعواماً لأني كانت تورّدها بلا إجهاد ، كبنيّة ملأت عجزها
ازهاراً وجاءت تلقي بها على العشب الأخضر . كان يسرّني ان لا افتح كتاب روحي
تقرأ فيه ملياً كما أقرأ في كتاب روحي . ما أندر المحتفظ منا بفطرته الاصلية في
وسط الكاذب اجتماعيته نقبلها مدهين - شرّ ما شئت عادات ، أو أدباً ، أو تكتماً ،
او مراعاة ، أو حكمة اجتماعية ! وما أقل من ينجح في التفلت من بين المخلصين
المجاهدين ! بل ما أندر من يذكر ان وكاتة انما هي وجه عارية ، ونقاب سخرية أسدل
على ملامح الحياة ! نحن نكذب في كل شيء حتى وفي الحب ؟ حتى وفي الحب الذي نشكّه
قهراً ، وننكر عليه التنهد والتلوي والارتعاد ، ونوجهه إلى التواري عوضاً عن
التجلي في الوشاية وتقديم النفس ضحية في النظرات . كم من مرة كدت أقول لها

نكذب في الحب الذي نشكّه على ان نصرح له بالنفس في همهمة الشدائد

"انتِ لا تعرفينني يا بنية" ولكني كنتُ أشعر بأن كلماتي لم تصدق الصدق كلّه. فقلتُ على ان اترك بين يديها مجموعة اشعار انولد التي وردت الي حديثًا؛ وان تدعها تقرأ قصيدة الحياة الدفينة: وكان مغزاها الاعتراف بحبي. ثم جثوتُ قرب سريرها وقلت "مساء الخير". فردّت بقولها "مساء الخير" ووضعت يدها على رأسي. فجرت في أعصابي تلك الهزة المستحبة وهبّت ما رقد في جوانحي من تذكارات الطفولة، ولم أعد أستطيع حراكًا بل ظللتُ انظر في تينك العينين اللتين لا قرار لغورهما حتى أفاض سلام روحها على روحي سلامًا. ثم نهضتُ ومضيت هائمًا؛ ورأيتُ تلك الليلة في أحلامي صورة طويلة تتلاطم الرياح حولها دون ان تهتز ~~لها~~ عيدانها ورقة أو يتحرك منها غصن

الحياة الدفينة

النور يعلو ويغمر حولنا الظلمة:
انظري، ها ان عيني تراودها الدموع
واشعر بجاذبة مبهمة تلتف حولي وتمتد.
أجل، نحن نعلم اننا نستطيع ان نمزع
ونعلم، نعلم اننا نستطيع ان نبتسم!
ولكن في مراجيح طفولة لا تطفأ كالمنارة الوقيدة،
ولا تزال منك البسمات.
اعطيني يدكِ وامشي قليلاً
ولتستقر على عينيّ نظرة عينيكِ الصافيتين
لأقرأ فيهما، يا محبوبتي، آيات روحك!

أداه ! هل يقطع الغرام
دون فتح فؤادك واستماع صوته ؟
هل يحظر على المتيمين
إظهار ما تكن قلوبهم ؟
كنت أعرف الناس يفنون بأفكارهم
فلماذا يلقاها الآخرون ببرود وجفاء ؟
كنت أعلم انهم يحيون ويتحركون
بخدوعين خادعين ، متنكرين متسترين ،
غرباء عن البشر ، غرباء عن ذواتهم !
إنما القلب بعينه ينبض في كل صدر بشري !

ولكن نحن ، يا محبوبتي ، أليست ذلك الطلسم الوحيد
لقلوبنا ؟ وأصواتنا ؟ — أيجب ان نحس نحن أيضاً
آه ! ما أسعدنا اذا حزنا قلبنا ، ولو لحظة ،
لعللنا قيود الشقاء
لأن السر الذي أطبقا وختم عليه
تقدس في أعماقنا !

القدر الذي سبق فعلم كيف يكون الجهل طفلاً وكيف يكون زهواً
وكيف تتقاذف المطامع فيخوض ميادين الشقاق والنزاع
حتى تكاد تتحور شخصيته ،
فلا يتمكن من وقاية النفس الطاهرة من تلاعب الأهواء
وان أرغما على الخضوع لناموس الكيان ؟
ذلك القدر هو الذي يأمر نهر الحياة في صدرنا
باستطراد السير إلى الامام .
فتنسى حركة ذلك النهر الدفين
وان لازمناه في اجتيازه عرض البحار
وكنا مثله مسوقين على الدوام .
ولكن كم من مرة ، في ازدحام السبل ،
وكم من مرة ، في جلبة المعارك وفوضاء التقاتل
يتصاعد فينا الشوق فتتنبه لحياتنا الدفينة ؛
ويتيقظ لدينا احتياج لوقف نار قوانا التي لا تقف السكون ،
ويضيئنا توق الى البحث
عن اسرار القلب النابض بعنف في أعماقنا
لنعرف من اين تأتي أفكارنا والى اين تقصد !
كثيرة هم الذين يحفرون في قلوبهم وينبشون
لكن ، واشقاه ! قل من يشغل القلب وقل من يعمه ويفيه !

عالجنا الجمّ من شؤون الحياة
فأظهرنا في كل فن حذقًا ومهارة ؛
على اننا لم نكن كما نحن في ذاتنا القصوى
ولم نُسِر في سبيلنا الواحدة سويعةً ،
ولم نغصّ عن عاطفةٍ
من العواطف المتضاربة في صدرنا ؛
وباطلاً حاولتْ ان تتكلم وتتحرك
خلال تلك العواطف ذاتنا الخفية الصادقة !

فكانت أفوالنا وأفعالنا
بليغة وحسنة — ولكن غير صحيحة !
وإذ يثقل الألم علينا وطأة الأيام
نسأل صفاء الحياة وسكاشفة
قدرة المعرفة للوصول إلى النسيان والسلوان
فتلبي طلبنا إذ نلتجئ اليها !

ولكن رغم كل مغالبةٍ وكل قهرٍ
تنهض الوقت بعد الوقت ، من عمق أعماق الكيان
كما من أرض قصية مجهولة
تنهض أصوات ملتبسة بائسة ،
وتنتشر أصداء طائفة شاحبة
فتملأ أيامنا كآبة وغمًّا !
إنما — وهذا نادر الحدوث —
عندما نضم في يدنا يدًا محبوبة
ونقرأ بعينين يعذبهما دفء الشفاه والعيون
نقرأ بجلاء في عيني شخص آخر ؛
وتدعب سمعنا الذي أصمّه ضجيج العالم
نبرات صوتٍ عزيز —
إذ ذاك تنبثق الأنوار في أرجاء جناننا
وتضرب أبيات القافية المفقودة من جديد
وتستقر ألواحنا في محاجرها ؛
وينفتح كتاب القلب فنعني ما نقول ،
ونقف على ما نود معرفته ،
ويرقب الواحد منا فيض حياته
ويسمع دمه يدق ، ويمس وتر المشابهة ،
فيستمتع بالحقول اللامعة ، ويتمتع بالثمر والنسيم ،
وأخيرًا ، أخيرًا يداهم ذلك الفيض الحار
صدرًا حبس فيه الخيال المراوغ المدعو بالراحة :
نسمة باردة تهب على وجهه ،
وشعور غير مرغوب فيه يهجع في صدره ؛
إذ ذاك تنثال علينا كالماء أثرقت عليها حياته
وبحر تشير اليه أعمار الأنهار !

الذكرى السادسة

في صباح الغد طُرق بابي باكرًا ودخل عليّ طبيب البلدة الذي كان يعالجني وعنايته صديق كل نفس فيه. شهد تعاقب جيلين اثنين من أهله والأطفال الذين دخلوا العالم على يده، وصلوا إلى دور الأبوة والأمومة وما زال يعاملهم جميعًا معاملة الأب لأبنائه. لم يتزوج مع انه كان في شيخوخته لا يزال قويًا جميلًا. عرفته منذ عرفته كما يقف الآن امامي يتلوى جعدًا؛ وعيناه الزرقاوان الرائقتان تلمعان تحت حاجبيه، وشعره الابيض الكثيف ~~متلويا~~ يتلوى جعدًا؛ يلبس جوارب البيضاء وهذا الحذاء ذا العرى الفضية، وعلى ذراعه هذا الرداء البني الذي قضى عمره جديدًا. وعصاه ذات الرأس الذهبي هذه كان يحملها بعينها ايام طفولتي إذ يقف إلى جانب سريري ~~حين~~ ليجس نبضي ويصف لي الدواء. ولقد تعددت الامراض بي حداثتي إلا ان ايماني بقدرة هذا الرجل كان كفيلًا بالشفاء لاني لم اشك لحظة في كفاءته وسلطونه على جميع العلل. فكان قول والدتي بوجوب ~~احضاره~~ استدعاء الطبيب يعادل عندي قولها بوجوب حضور الخياط ليفصل لي قميصًا وبدلة. وما كان عليّ إلا ان اتناول أول جرعة من الدواء لاشعر ببدء الشفاء والتحسن

دخل الغرفة قائلًا، كيف حالك يا صديقي الصغير؟ أرى دلائل التعب على

وجهك فلا تكدر من الدرس . ليس لدي وقت طويل للحديث . إنما جئت اقول لك ان تكف عن زيارة الدوقس ماري . لقد صرفت الليل قرب سريرها وانت علة اضطراب . فامتنع عن زيارتك إذا كانت حقيقة عزيزة عليك . ستذهب الى البرية قريبا ~~[illegible]~~ وخير لك ان ~~[illegible]~~ انت أيضا وتتغيب مدة . والآن عم صباحا وكن ابدا ولدا عاقلا كما ~~[illegible]~~ هو عهدي بك "

قال هذه الكلمات وتناول يدي ناظرا في عيني ~~[illegible]~~ بعطف مستفهما كمن يود سلب الوعد سلبا . ثم غادرني ليعود الاطفال المرض

أود لو يهتدي غريب على أسرار نفسي فيدرك قبل ان اكون على علم تام بها . غير اني لم أكد في هذا الا عند ~~[illegible]~~ اطراف الشارع ؛ فجاش قلبي كالماء المتلاطم على النار فتغلي فجأة وتثور وتفور وتعلو حتى يضيق عليها الاناء فتشتاق

كيف لا اراها بعد الآن وأنا لا احيا الا في كنفها ؟ كيف لا اتوق الى رؤيتها وحاسة لا احكم ، بل اكتفي بالوقوف عند النافذة وانظر اليها وهي نائمة تحلم . كيف يمكنني ان لا اراها ؟ بل كيف لا أود ؟ هي لا تعلم - ولا تستطيع ان تعلم اني أحبها . وأنا لا اتكلم شيئا ولا أطمع في شيء ، وقلبي ينبض بانتظام في حضرتها . إنما احتاج الى الشعور بوجودها ، احتاج الى استنشاق رائحتها ، وعلي ان ازورها لأنها تنتظرني . ترى أيجمعنا القدر بلا مآرب ؟ أكنت انا غريزتها وأنت انا موضع رغبتي ؟ أتكون الحياة

لتدني بين روحين ~~[illegible]~~ ذرّت الرمل في الهواء ثم تبعثر بريح سموم فتلاعب بضعفه وتذرها في الهواء غباراً ؟ أليس ان نفوسنا سعدت بالتقارب ~~[illegible]~~ والتفاهم تحافظ على سعادة ، ولا تفصل بينه قوة ولو ائتزرت في الدفاع والنضال وقضت في سبيل ذلك الاتصال ؟ وقد تحنو علي الفتاة إن انا جازفت بحبه وأجفلت لأول اثارة إجفال تلك الشبوة عند دوي الرعد في الفضاء

توقفت بغتة واذا بكلمة «حبه» تتراجع كالاصداء في جميع أنحاء قلبي خفيفة مروعة. «حبه» ؟ وماذا فعلت لأستحقه ؟ هي لا تعرفني إلا قليلاً ؛ واذا استطاعت ان تحبني فعلى ما عارفها بأني ~~[illegible]~~ لست أهلاً لتلك النعمة . وأخذت أفكاري وآمالي تتصاعد في جو نفسي ثم تهبط يائسة كأطيار تحاول التحليق في بعيد السماء ، وهي تجهل أي الأسلاك ضربت حولها سياجاً محكماً . إن لم تكن هذه السعادة التي تحاول على مقربة مني ؟ ألا يصنع الله العجائب ؟ ألا يصغي كل يوم وكل ثانية ؟ ألم يصغ لصلواتي مراراً أرسلتها نحو علاه فعادت إلي تحمل لي عدة للمكاره وتعزية للمرضى ؟ أنا وهي لا ننشد غيراً دنيوياً ، الا ان نفوسنا المتفاهمتين تودان عبور هذه الحياة يداً بيد ، ووجهاً لوجه ، وان تكون هي تعزيتي ، أو عملي الغالي وجه — وان اكون أنا عضدها في الآلام وان تكون هي تعزيتي ، أو عملي الغالي ، وهكذا إلى نهاية العمر . ولماذا لا يمنحها الله بعولها وينعم عليها من أيامه بربيع بعد أوان الربيع ويبرئ سقامها ؟ — آه ! يا للصور العذبة تمر أمام عيني ! هي تملك

قصر والذكرى في «البترول» . هناك نمكث فوق الآكام الخضراء في هواء الجبال النقي، بين أصحاء لم تضعفهم المدنية، بعيداً عن هموم العالم وجهوده، حيث لا حاسد ولا عذول؛ هناك ندرك بسلام غروب الحياة فنذوب آيامنا الأخيرة رويداً رويداً كما غمار الشفق لدى هجوم الظلام ...

تراءت لي البحيرة القاتمة بأمواجها الهادئة ترجع صدى الجبال البعيدة يجلل الثلج أعاليها . وسمعت رنين أجراس القطيع وأغاني الرعاة ، وخلت الشيخ والشبان متجمعين عند الماء في مدخل القرية — وفوق هؤلاء جميعاً خيال الفتاة ... حبيبتي وسلام ؛ وانا معك دليلاً لا وحيداً

عندئذ صرخت بأعلى صوتي ، يا لك من غبي ، يا لك من غبي ! أخارت قواك من الحب واذكر ذوقاً تحول بينك وبينه ! هي طالحة لطيفة تثير بروية نفسك شعلة في مرآة نفسي أقوى . على ان تفقد هذه السيدة شقة الأطفال ، وكيف تعرف معك ومعاملتك ، كلا تنم عن خلو فؤادها من عاطفة عميقة تحبك . ألم ترَ في ليالي الصيف المنيرة وانت تائه وحدك بين اهاج الزان كيف البدر يفضي أشعته على كل غصن وكل ورقة ، ويضيء بركة الأسماك ذات المياه القاتمة فيشرق متلألاً في كل قطرة وجزء من قطرة ؟ ذاك سوقف ازاء ليل هذه الحياة ؟ وان نثرت في فؤادك نوراً ترتسم خلاله خطوط صدى الأطيفة فلا ترجع شعاعاً ، لا ترجع شعاعاً حاراً لاذعاً ! لا ترجع عاطفة حارة تشبعك وتحبك !

مثلث صورك امامي مثول الحياة ، كلا لذكرى بل كرؤيا ، فاستوقفني جمالك .
ذلك لم يكن جمال الرونق الزاهي الذي تفتنا به الفتاة الحسناء لأول نظرة ، ثم ينقضي
ويزول بزوال الربيع . بل كان جمال الانسجام والالتئام بين أجزاء كيانك ،
وجمال الحركة الحادقة والتعبير الروحي ، ومعنى السكون المفهم . إن جمال الشكل واللون
الذي تمنحه الطبيعة بنات حواء لا يرضي إلا إذا أظهرت حاجبته أهلية له بل وتغلبا عليه .
والآن فيضرب ويخطط كأنه رداء ملوكي تجره في المرسح ممثلة ذات فن خامل
فهو سقيم . الجمال الروحي هو الجمال الوحيد يمد الصور الذابلة الجامدة بالحياة والمعنى
ويهيئ المنفر جذاباً والقبيح مليحاً
كلما امعنت النظر في طيف الحبيبة أدركت أني قبل الجمال وعمق الروح كان
الوهي بذلك الجمال يهبط علي بالتدريج . أواه الى الغبطة ، الى السعادة تلمس يدي !
وما غاية الزمن من تعذيبي ؟ أيرضيني قسمة الهناء ثم يلقي بي غداً في القفار حيث المال
المحرقة والوحدة الموجعة ؟ ما الغاية من اكتشاف كنوز تحوي أرضا هذه ؟ أليس دوام
الشقاء خيراً من ان يحب المرء مرة ثم يبقى الى الابد وحيداً ، ويرجو يوما ليستحق اليأس
قلبه دواماً ، وليمح النور ضوءه ليصف حياته في الظلمات كفنيا ؟ هذا ألم يفوق الآلام
البشرية مجموعة بتمامها
طال تشتت افكاري وتناقض امنوس المخيل ، الى ان هدأت عاصفة شعوري
وتجمعت خواطري وانتظمت قليلاً قليلاً . بلى يبقى الناس هذا الخلود تفكيراً ولكن التفكير

في مثل ذلك محال وما لدينا من قوة سوى الترقب والانتظار . وما هي النتيجة ؟
هي تلك التي يشهدها الكيماوي المتيقظ بعد ان تأخذ العناصر اشكالها ~~الحقيقية~~
فيدهش ان نتائج التحليل تختلف عن مقدماته كل الاختلاف كله .

وكانت الكلمة التي لفظها بعد العودة من غيبوبتي هي هذه : « يجب ان أسافر ! »
فجئت الى مكتبي وكتبت الى الرهيب اني سأغيب اسبوعين وانا اترك الأمر
له . ثم انحدرت عندئذ قدمشة لأبوي وغادرت البلدة في ذلك المساء ، ووجهتي
جبال « البيرول »

الذكرى الثانية

ما أسعده فتى ذاك الذي جال في انحاء "البندول" فتسلق جبال هضبة وهبط أوديته العميقة برفقة صديق أو محبوب! أليس ان حظًا لهذا يبعث فيك طمأنينة وطيب نوم العمر؟ وما أشقى ذاك الذي يجوب البراري والقفار والغابات والمدن وحده لا نديم له سوى أفكاره المؤلمة

ترى ماذا يرجى من هاتيك الجبال التجلية بحلل "الخضراء" ومن هذه الوهاد السوداء الغائرة، وتلك البحيرات الزرقاء، والشلالات المتدفقة تتكسر فيك خطوط الأنوار والظلمات؟ عوضًا عن ان انظر اليك هاهي تنظر إليّ وفي ذهولك لدلائل اليأس المرسومة على الوجه البشري المائل أمامك؛ وهو لا يسحق قلبي وتثقل عليّ انفرادي إذ ليس في هذا العالم الواسع شخص يشتاق إليّ، ويرغب فيّ، ويؤثرني على أي أحدٍ غيري. كنت أحلم ارقد كل مساء، وأستيقظ كل صباح بهذا اللهف المبرح كأنما هو فقدة تفقدت في سمعي وخلت ذكراني دون أمل في الجلاء

دخلت ذات مساء احد الفنادق تعب النفس والجسد وجلست بين الحضور فتبدهت إليّ انظارهم ورأيت في خيال الشفقة على هذا الغريب النائي في ديارهم. فأمضني جراح قلبي وطلبت أسعى تحت جنح الظلام حيث لا عين ترى ولا شفيق يشفق. وعدت والى غرفتي

في أدلهم الليل وانطرحت على مضجعي الملتهب أهمهما لنفسي بأغنية شوبرت المعروفة «حيث لست موجوداً هناك السلام والطمأنينة». ومرت الايام وحالي في ازدياد حتى أمسيت لا أحتمل منظر المغبوطين الفاعلين وفي أحد الطبيعة البديعة الأديمة، فكرت أيام عاصفة النار طويلاً وأرق الليالي متجولاً من مكان إلى مكان. إلا ان عاطفة قوية كانت تستولي عليّ فتحول أفكاري عن مجراها وتردني إلى المخدع، وهي عاطفة الخوف أو احساس الخوف بسمه مائي.

نعم كنت أخاف في تلك الليالي القمراء إذ أتسقف التاف الاطواد في أدغال ليس بمعروف مداها ولا منتهاها بمأسون؛ فتتوتر أعصابي وتيقظ بصري ويرهف سمعي فأرى اشباحاً بعيدة مبهمة، وأتوجس اصواتاً ذات همس ودوي وطنين جميعاً تنبعث من كل صوب، وتتعثر قدمي بجذور انبثقت من شقوق الصخور، فإن لم تزلق في عطفة بلت تراكي مياه السيل فتمكث في فؤادي القاطف وتزهره قشعريرة البرد وليس لديه من وارة التذكار ما يدفئه ومن حلو الرجعية ما يتعلل به. إن من أخذه مرة وجل الليل لعالم بأنه يتناول النفس والجسد معاً

لا أشك ان الخوف كان أول عذاب الانسان يوم ظن نفسه منسياً من الله. ثم تشدد وخف اضطراب بنعاون ابناء الله فيما بينهم

واتفاق كلمتهم على التكاتف والتضامن . وهو لا يعرف الوحدة الا حقة واليأس الصميم إلا عندما يعوزه الحب والمعونة فيتمثل له انه إنما انقطع عن شركة الاحياء لان الله حجره واغفل وجوده . ثم ادل الطبيعة وعجائبها فيلقى من شتوى هولاً لا موأتاة ؛ وينقل خطواته على الارض المتينة الصلبة فترتجف تحت وطئه وتتوارى كزبد البحر وموجه . وان رفع نظره نحو النور نثرة القمر صاعداً وراء أعواج الشربين حسب أشعة رؤوس حراب تطعن رهج الصخور ، وخيوطه ~~الجامع الذي تطلب~~ ~~الانتظام~~ غلاب ساعة دارت دورتها زمناً ووقفت وقوفاً لا تترى

النجوم تدور مسرعة في أبراجها السحيقة لا تلتفت لتفاء الغبراء فلا تعزية في مرآها بل هو يزيد النفس شعوراً بالوحدة والهجران . وما من سلوى ممكنة في غير عمل الطبيعة المستطرد بدقة يشمل الموجودات بأسرها لا تشويش يزعج ذلك النظام الكامل العظيم

هاك الدليل ، يا أيها المتأمل ! فان تذوقت أنواعه أنال الجلاميد تحتبي تلك على جانبيه حياة وكها بطحلب ذي خضرة قاتمة ، وفي ظل الجلاميد تختبئ تلك الزهرات الزرقاء النحيفة المدعوة « لا تنسني ! » . هذه واحدة من ملايين الزهرات المنورات قرب كل ساقية وكل جدول في كل روض من رياض الارض . وقد تورن

في أماكن مرات عديدة منذ ان نزل الكون على الخليقة ثروة حيويته التي لا تفاد
لا . ~~كل خط في ورقات هذه الزهرة حي ، وكل ذرة في كأس~~ ~~معدودة وجميع~~
~~الباقي جذر مضاعف~~ أحصيت جميع الخطوط في ورقات هذه الزهرة ، وعدت
جميع الذرات في كأسها ، وضبطت جميع ألياف جذرها فليس من قوة أرضية
مهما طغت وبطشت ان تزيد عليها أو تنقص منها قتيلاً . واذا استعنا بالمجهر
(الميكروسكوب) لتبين عمل الطبيعة وأكتشفنا خفاياها في أدق انواع انتاجها
وجدنا في احشاء البذور البادئة ، وفي البراعم والازهار والانسجة والخلايا ، الناموس
ذاته متكررا متجددا ، ويظل نظام الكون في أصغر الذرات وأنحف الألياف
أبديا لا يلحقه تغير ولا يلحق به تبديل . انى توجهنا لقينا النظام الأوحد ؛
فالنفس من هذا العالم الصغري عين أحاطت بالمرايا فقدت ذاتها
في تكرار لا حد له ولا غاية . وفي كل كائن وكل موجود يستقر الأبد
الأبد الذي يختلب ذهنك ازاء هذه الزهرة النحيفة .

وهناك في أعالي الفلك تجد النظام بعينه نافذا في الاجرام الكبرى :
فالاقمار تدور حول السيارات ، والسيارات حول الشموس ، والشموس حول شموس اقوى
وما القديم الخيالي الشحيح إلا عالم عجائب وقدرة وجمال . ولا تفنأ هذه الكواكب

انظيمة تدور في أبراجها تتظفر الأرض بتوالي الفصول فتتكمن الزهرة من النمو والبروز، وتنشج منها الخلايا وتنتشر الأوراق فترتفع هامة داخلها بين ط الحقول. كذلك ينفذ النظام في النواة المتوسدة أحضان الازهار. فان يقظة للوجود، وتمتد بالحياة، وكيفية تنفس ونموها لأعجب من نسيج النبات ودورة الشموس. ونحن البشر نظير كل كائن إنما يختص بنا النظام الكلي الخالد. فكم من موجود انتبه من غفلة العدم وتحرك وعاش ثم اختفى غير تارك لمروره من أثر!

فاذا كان الكل بموجوداته الكبيرة والصغيرة وما يدبرها من حكمة وقدرة، إذا كان هذا الكل بأعجوبة حياته وحياة أعاجيبه صنع كائن أحد فلماذا انت ترتعد ولماذا تخشى؟ أليس الاحرى بك ان تخر جداً مدركاً ضعف نفسك وعدمك ثم ان ترفع عينيك نحوه واثقاً بحبه وعطفه؟ أليس ان فيك شيئاً أثمن من نسيج الازهار وأعضاء الخافقيات وأبراج السيارات؟ إذا كان ذلك ورأيت حياتك في صفحة الوجود محاطاً بناتق الكائن الدائم وشعرت بحضوره فوقك وتحتك وفي داخلك، وانما بذلك الحضور الالهي يصبح الشبح منك إنساناً، والقلق عندك راحة، والانقطاع اشتراكاً، والانفراد وحدة كبرى؛ إذا كان ذلك وعرفت

أنك مناجيه إذ تطرح في ليل الحياة البهيم "أبتي، فلتكن مشيئتك كما في السما، كذلك على الأرض وكذلك في"! فكيف لا تنقشع عنك غيوم الأكدار وينبغ فجر السرور حاملاً معه تعزية ونوراً؟ ان لك من الله يداً لا ترحمك بل تظل تعضدك وتقودك عندما تهتز الركيزات وتنطفئ الشموس. حينما حللت بمكة وكنت معه وكان معك وهو قريب اليك على الدوام، له الخليقة بورودها وأشواكها، وله الأذن بأزاهره وأثماره "ولا يحدث شيء إلا بإرادة الله وسماحه"

بمثل هذه الخواطر كنت أسلي نفسي فأتقبل تارة فرحاً وطوراً حزيناً. لأنه بلحظة ان نحن بلغنا مقر الراحة والسلام القائم في غور الروح فتتقدر عيناها المكث هناك طويلاً؛ وكم من نفس تلك الخلوة بعد الاقتداء إليها، وتنسى حتى السبيل الفكري الممتد بين العالم وبينها

انقضت الأيام بسرعة ولم أتلق من فتاتي حرفاً. فكررت لهم جديد إذ قلت لنفسي "ربما توفيت وهي تستريح الآن في حضن السلام الأبدي" فأقامت هذه الكلمات تحوم حول شفتي وحلمت بالفتاة في ازدهارها بالغة حد الإنبات مغناها فعلام الازدهار وقد يكون حلم المقدور؟ ألم يقل الطبيب ان ضعيفة القلب وانه يتوقع ان تفارق الحياة من يوم إلى يوم؟ فهل أعنف لنفسي لذلك إذا غادرت صديقتي الدنيا دون ان أودعها وأتبعها بحبي ولو في الساعة الأخيرة؟ الا يحتم علي

البحث عما الآن لا أستمع منذ كلمات الحب والغزل ؟ لماذا يتردد الناس في
فضاء الشؤون ويؤجلون مخيرين غبطة تتيسر في الحال ناسين ان كل دقيقة
قد تكون الأخيرة وان ما فقد من الزمن فقد فقد من الأبدية ؟

فكرت في اجتماعي والطبيب قبيل السفر فأدركت اني لم أرحل إلا لأثبت
له اني قوي صلب الارادة وقد عز علي الاعتراف بضعفي وباحتياجي اليه . فاصبح لي
الواجب في الحال وهو العودة اليه على الاستعداد لقبول ما تبعث به إلينا السماء من
وجع وترح . وذكرت قول الطبيب بقرب ذهابه الى البرية وقولاً لي في قبلئذٍ انه اعتادت
الاصطياف في قصرها في البرول . أكون إذن على مقربة مني لا يفصل بيننا سوى
ستة ساعات قلائل ! ما كاد يبرز الفكر حتى عاجلته بالتنفيذ : فقمت عند انبثاق
الفجر ووجدني الغروب أمام قصرها

وكان الليل هادئاً جميلاً وقد ضرب بجد الغروب فوق قمم الجبال رواقاً
عنبرياً فسبحت الاهداب في زرقة وردية ، وتصاعد من الأودية ضباب رمادي
فجعل يستحيل لامعاً بملامسة الهواء المنير ، ثم اتجه نحو أعالي الجو كبخور ضياء متحرك .
وتقدد تلك الألوان والأعيب هاتيك الأنوار كان ينعكس على صفحة البحيرة المضطربة
المياه فتبدو فيها قمم الجبال مرقصة رؤوس الأشجار والشذرة سطح الكنيسة ، وكأن
تلك الرسوم في الماء كانت هي بعينها الحد الفاصل بين عالمي الحس والخيال

استقرت عيناي على القصر القديم حيث أرجو الاجتماع بـ ، ولم يكن في النوافذ نور ولا حول الجدران حركة تقلق سكون المكان ؛ ان قلبي ليحدثني بلقياها أكيدني اليوم قلبي ويخونني الرجاء؟ مشيت متمهلاً فاجتزت الباب المقصر الخارجي ووجدتني في ساحة القصر حيث يمير الجندي الحارس ذهاباً وإياباً . بادرته بالسؤال عن الكونتس فاجاب انها في القصر . فقرعت جرس الدخول وانتظرت؛ وفي تلك اللحظة دهشت لما أنا فاعل قد لا يكون بين الخدم من يعرفني ، ولا أجرأ على ذكر اسمي لأني قضيت الأسابيع المنصرمة تائهاً في الجبال وقد أهملت امر لباسي وهندامي متى مرت أشبه بالمتسولين . فماذا أقول وعمن أسأل ؟ لم انتظر طويلاً لأن الباب فتح فظهر منه البواب في زي خادم الامراء وحدق في بهرتنا

سألت عن السيدة الانجليزية وصيغة الكونتس فقال انها هناك . فطلبت قرطاساً وقلماً وكتبت اليها اني قدمت للاستعلام عن صحة الكونتس فبعث البواب بالرسالة مع خادم سمعت وقع خطواته المتباعدة في ارجاء القصر وممراته ، وما تلاشت تلك الخطوات حتى صار موقفي لا يحتمل . فأخذت أنظر إلى ما علق على الجدران من صور افراد الاسرة الراحلين : فرأيت تذهب ، وسيدات يرتدين الزي القديم ، وفي وسطهن صورة راهبة بثوب

بالسلاح

ناصع البياض وعلى صدرها صليب أحمر . لقد رأيت هذه الصور قبل اليوم في أحوال مختلفة ولم أفكر قط ان صليبًا خفق في هذه الصدور . وها ان ملامح هذه الوجوه تظهر اليوم كتبًا ملأى بالمعاني وكأنها تقول جميعًا ، لقد عشنا نحن أيضًا وتألمنا مثلك" . نعم نعم تحت هذه الأسلحة الماضية دفئت أسرار كالتي تفطر الآن حشاشتي ؟ وفي صدر الراهبة ذات الثوب الأبيض والصليب الأحمر جاشت العواطف المتلاطمة الآن في صدري . خيل إليّ ان العيون تطل عليّ من الرسوم مشفقة . ثم اختفت الشفقة وحل الكبرياء مكانها وقالت الصور وأهلاً ، أنت لست منا !" وكانت ثمرة الدقائق فيتمد وجلي . وإلا ان سمعت وقع أقدام خفيفة يقترب [illegible] . وإذا بالسيدة الانجليزية تشير إليّ بدخول احدى الغرف . فنظرت اليها مستفسرًا لأقف على ما توفي مما جرى ولكنها ملامحها بقيت هادئة لا يبدو عليها دهشة أو تعجب أو أي اهتمام خاص . وقالت بصوت رزين ان صحة الكونتس في تحسن وإنها ستقابلني بعد نصف ساعة

مثلما كنت أعرف [illegible] بالنجاة بعد يأس الموت إذ يرى نفسه آمنًا على الأرض عقب ان تقاذفته اللجج — كذلك كان وقع هذه الكلمات في قلبي . هانذا أدنو من حقيقة جديدة وما آلامي الماضية سوى أضغاث أحلام . قليلة هي اللحظات

لمحات الفجأة المتناهية — في حياة الإنسان والوف الوف من البشر لا يتذوقون
هناءها. فالام التي تناغي رضيعها لأول مرة، والوالد الذي يلاقي وحيده عائداً
من الحرب وقد انقلت جبهته أكاليل المجد والنصر، والشاعر الذي تقذف
له أمته بالعبقرية وتحييه بالهتاف والثناء، والشاب الذي يشعر بأن
يد فتاة تسيل حباً في يده — أولئك وحدهم يدركون لذة الاحلام إذا هي
انقلبت حقائق

مضى الوقت المعين فجاد الخادم وسار بي خلال غرف كثيرة ثم فتح
باباً فلمحت في نور الشفق الضئيل شبحاً أبيض أمام نافذة عالية أطلت
على البحيرة والجبال المتلظية الى طحة

— «ما اعجب تلاقي البشر بعد الفراق الطويل!» سمعت صدى الغضب يلفظ هذه
الكلمات فكانت كالثلج برداً على قلبي وسلاماً
فرددت كلماتي قائلة «ما اعجب التلاقي وما أعجب الفراق!» وسكت
بيدها فأدركت اننا معاً وعلى مقربة الواحد من الآخر
فقالت «إذا هم اقترفوا فما الذنب إلا ذنبهم». قالت ذلك وصدى المنجم
البرات عادة كموسيقى سماوية تبتهج قليلاً
فأجبت «صحيح. ولكن قولي لي أولاً كيف أنت؟ هل استطيع التكلم؟»

فقالت باسمة « يا صديقي العزيز ، انت تعلم ان صحتي غير جيدة ؛ فاذا زعمك متحسنة فعلت حبًا بطبيبي الذي أنا مدينة لعلمه وعطفه بحياتي منذ حادثتي القطوى . وقد وقعت كرة قلبي في احدى الليالي قبل مغادرتي المدينة فعانيت ألمًا شديدًا وحسبت تلك الكرة واقعة دوامًا . فراعه ذلك . ولكنه أمر مضى فلماذا تذكره ؟ » شيء واحد يؤلمني : كنت أرجو ان الموت ينقذني بلا وجع والآن أعلم ان الأوجاع ستعذبني ساعة الرحيل وتفعم بها تلك الساعة مرارة » . ثم وضعت يدها على قلبها ، وتابعت « ولكن قل لي اين هذه الغيبة الطويلة ؟ ولماذا قطعت عني أخبارك ؟ لقد أورد لي الطبيب جملة اسباب لسقوطي الفجائي فصارحته القول اني لا أصدقه في واحد منها . فذكر لي أخيرًا سببًا هو أدنى تلك الاسباب إلى الغرابة . أتعلم ما هو ؟ »

فقاطعتها خوفًا من ان اسمع كلمة تؤلمني قلت « قد يخال السبب وهميًا وهو ليس بوهمي . وهذا مضى أيضًا فلماذا تذكره ؟ »

قالت « لماذا مضى يا صديقي ؟ عندما تذكر السبب الأخير قلت له اني لا افهم ما تعنيان ؟ انا فتاة عليلة باسمة وحياة جسدي ميت بطيء ؛ وقد ارسلت إلى السماء صديقين يرثيان لحالي أو يحبانني — على زعم الدكتور —

فأي شيء في ذلك يخلق راحتي أو راحتها ؟ كنت أذاً قصائد شاعري المحبوب
وردد صورتي قبيل محادثة الطبيب فقلت له : « يا طبيبي العزيز ان الأفكار كثيرة متنوعة
والكلام المعبّر عنه قليل ؛ فنزعم على تصوير ما لا نقصد ولا نفهم الآخرون
ماذا نريد باستعمال كلمة واحدة فيدلون ما شاء الوهم والخيال . فلو سمع
من يجهلنا انني أحب صديقي الفتى وانه هو الآخر يحبني لخالنا شيئين بردين
وجوليت ؟ ولو كان الأمر كذلك لوافقتك على وجوب ملاشاته . ولكن
أليس انك تحبني انت أيضاً يا طبيبي العزيز كما أحبك ؟ ولقد احببتك أعواماً
طوالاً ولا أدري هل كنت أحبك قبل الآن . فما انا بيائسة ولا بشقية . وأقول
لك انك خصصتني بمودة شديدة وانك تفار من صديقي الفتى . ألا تأتيني كل صباح
متفقداً حالي وانت تعلم انه لم يجد شيئاً ؟ ألا تهديني أجمل أزهار حديقتك ؟
ألم تحملني على إهداء صورتي اليك ؟ وهناك امرأ اخر قد يحسن كتمانه
ألم تدخل عليّ يوم الأحد الماضي فجلست قربي وأنت تحسبني مستغرقة في
النوم ، وحدقت في طويلاً فكانت نظراتك كأشعة الشمس تلثم وجهي . ثم كبيت
وأخفيت وجهك براحتيك وقلت بصوت يقطعه الشهيق : ماري ! ماري ! آه ،
يا طبيبي العزيز ! صديقنا الفتى لم يأت أمراً كهذا فلماذا أقصيته ؟ » قلت ذلك
عني

بلاجة، جمعت بين الجد والمزاح كما اعتدت مخاطبته فتورد وجهه خجلاً وأشفقت لإيلام عواطفه. ثم أخذت كتاب وردزورث وقلت: «هذا رجل آخر أحبه بكل قلبي، أفهمه ويفهمني مع أني لم أره ولن أراه في حياتي. وأريد أن أعلمك على ما سبق احدى قصائده لتعلم كيف يحب البشر ويحبون. وإن أحب بركة الهية تنزل المحب على المحبوب فيجعل طريق حياته مفروشة بالورد والازهار». ثم قرأت له قصيدة «فتاة الجبال». والآن، يا صديقي الصغير، ادن السراج واتل لي هذه القصيدة ذات المعاني المشرقة. ان روح الجمال الخفية تلامس كما يلامس احمرار الشفق رؤوس الجبال المكللة بالثلوج البيضاء».

كانت تتكلم فصارت عواطفي هادئة رضية جليلة. انثنت العاصفة وانفلتت طيف البنية كصفحة البدر على بحيرة هبي - بل على بحر الحب الرحيب الذي يدعى كل النفس بينما هو ينشر في كل مكان لأن منه حياة بني الانسان. الحب بحر الحياة الهادئ الثائر في كل قلب، المفرق بين القلوب والجامع بينها بعاطفة واحدة وولهٍ واحد. وددت ان الزم الصمت كالطبيعة المنبسطة لنا. غير ان اللورنس دفعت إليّ الكتاب فقرأت: —

فتاة الجبال

« يا فتاة الجبال العذبة ، جمالك هو غناك الوحيد : أربعة عشر ربيعًا
سكبت على جبهتك بهاءها فحببك هي ثروة وجاهًا

« هذه الصخور الرمادية ، وتلك الأشجار الشبيهة بالنار ، السمو عن نصف
وجه السماء ، وذياك السلسال المهم في اذن البحيرة المنصتة ، وذياك
الخليج الصغير ، وهذه الطريق الضيقة المؤدية الى مسكنك — جميع هذه
تخال مصورة بخطوط الأحلام والأوهام . وأنا اباركك من أعماق قلبي ،
يا فتاة يبعث جمالك في هذا النور الأرضي نورًا سماويًا

« لكن الله عونك حتى اليوم الأخير ! أنا لا أعرفك ولا أعرف ذويك
على ان العبرات تجول في عيني ، حين ذكرك في حلواتي بخشوع بعد ذهابي
لأني لم أر حتى اليوم وجهًا كوجهك بدت فيه الرقة في حشمة ، واللطف في طهر تام

« عيني هنا بعيدًا عن البشر كبذرة قذفت في يد الصدف ، فلا ترحلي
أجفانك خجلًا ولا ترتدي ملاحك احمرار الحياء . على جبهتك أجرقت عربة
أهل الجبال وصراحتهم ؛ وفي ابتسامتك بسم الجود والحنان ؛ وعلى كفك

يتدفق تدفق خواطرك المنعتقة من ذهنك رغم قيود جهلك والفاظك الانجليزية القليلة . فيود تشدين بي وتجاهدين في التغلب عليها فتجيء اليك نغمة ان لها ولها معا . كذلك رأيت مرة أطيارا تصفق بأجنحتها لفائدة العاصفة

" كل يد تقطف لك الأزهار ، أيتها الحسناء ؛ فيا سعد من عاش وريك في وادٍ صغير كثيف الشجر كثير الزهر ، يلبس كملابسك ويكون راعيا للأغنام مثلك ! وهناك أمنية افضل من هذه : ولكن —

" انت موجة من البحر الان في العجيب . ليت لي عليك بعض السلطة ولتنني جدلتك من جبينك لاتمتع بصوتك وأهنأ بمرآك ! بل ليتني اخوك الأكبر أو ابوك أو أي واحد من أقاربك !

" واني لأحمد السماء التي قادتني إلى هذا المكان المنفرد حيث عرفت السرور . ثم ذهب حاملا معي الجزاء لأن للذاكرة ميزة كأنها ميزة النظر . فلماذا اكره الابتعاد؟

" اني اروح وأتألم في آنٍ واحد لفراقك ، يا فتاة الجبال الحلوة ! وسأحفظ أبدا في ذاكرتي هذه المشاهد البهية حيث كما أراها الان — كوخك الحقير — والبحيرة — والخليج — والتلال — لاسيما انت الروح المحيية جسم هذا الجمال "

وكانت معاني القصيدة تهبط على روحي كقطرات الندى . وإذا بصوت العندليب يتصاعد كنغمة الارغن تنبثق الصلي من تأملاته العميقة ، فقالت :

« هكذا أريد ان تحبني ، وهكذا يحبني الطيب ، وعلينا ان يحب بعضنا بعضاً هذا الحب وان يثق الواحد بالآخر هذه الثقة . وعلى قلة اختباري أكاد أظن ان العالم لا يفهم هذا الحب فجعل نبع الدموع في هذه الارض صحراء يتلظى القحط والكآبة . لا بد ان الحال كانت على غير ما هي في عهد غابر العصور . وإلا لما حدثنا هوميروس عن نوزيكا ذات القلب الحساس . أحبت نوزيكا او دبشس للنظرة الأولى فأشرت إلى صويحباتها « هذا الفتيان بعينه ! وليته المقام بيننا يطيب له ! » وكذلك فجئت ان تسير مع غريب له هذا الجمال الباهر لئلا يقال انها بحثت عنه . فما أبسط هذه الحكاية وأدق إلى الواقع ! وعندما قيل لها بوجوب رجوعه إلى زوجته وولده لم تتذمر ولم تشك بل امتثلت واختفت ، ونحن القراء نشعر انها حملت ابداً في فؤادها صورة ذلك الغريب الجميل القوي . لماذا يتجاهل شعراؤنا هذا الحب الصادق وهذا الوفاق الهادئ ؟ الا عز العصري يخرج لنا من نوزيكا حبيبة لغرتر لان الحب لم يعد سوى مقدمة لمأساة الزواج . أهذا هو الحب دون سواه ؟ هل جنت بنا بيع السعادة الطاهرة ؟ الا يريد الناس ان يعرفوا من الحب غير الخمرة

المكدة ليضربوا صفحاً عن ينبوعه العذب الى في الظما ؟ "

فاردت تعزيز كلامه واستشهدت بقول الشاعر الانجليزي القائل " ألا يحق لي ان اكبي لما فعل الانسان بالانسان ؟ "

فقالت " ما اسعد الشعراء ! كلماتهم تذوق العواطف الحرى ، في الوف القلوب وتنشد اناشيدهم لاطيار الجنان . فؤادهم يخفق في صدر الغيب والعقبى على السواء فيطرب معهم السعداء ويبكي البؤساء لبكائهم . غير ان وردسورث أحبهم الي : من اصدقائي من ينفي عنه كل عبرية . أما أنا فاحب منه اعراضه عن الاستعارات الهادية ، وتجنبه الغلو والمبالغة وما يسمونه " الصورة الشعرية " . هو صادق وأي ميزة فوق هذه ؟ هو يفتح عيوننا على الجمال المنثور تحت اقدامنا كما تزهر الاقحوان في الرياض والمروج ، ويسمي الاشياء باسمائها ، ولا يحاول إذهالنا وتفريزنا بل يرغب في إظهار الموجودات بزيها جمال الطبيعة قبل ان تشوهه يد الانسان . أليست قطرة الندى على الحشيش الاخضر أنعم بكاء وأوفى ثناء من لؤلؤة ثمينة صيغت في قالب الذهب ؟ أو ليس النسيم المتدفق من صدر الارض أجل وأبدع من مياه خزاني الاصطناعية على الاطلاق ؟

أليست قصيدة "فتاة الجبال" ألطف وأصدق من "هيلانة" "جوتي" و"هايدي" ببرون ؟
اني آسفة لعدم وجود من يماثل وردزورث في طهارة الفكر وشفافية التعبير بين شعرائنا . قد
كان يكون "شلر" لو استوحى خفايا نفسه بمثلما استوحى تاريخ اليونان والرومان ؛ كذلك
"روكرت" قد كان يدانيه لولا أنه آثر عيشة الرغد والرخاء بين ورود الشرق على شكنى وطننا
الفقير . فلله الجري الراضي بنفسه من التقهقر المتقدم على إطلاق رصاصة من الزوائد : ووردزورث
ذلك الشاعر . وكما نستمع برضى إلى اعاظم الرجال النوابغ حتى عندما لا يكونون أعاظم أملاً
في مكانتهم في الشعاع الساطع المنزل اليهم من شمس الالهية كما هي كذلك في افكارهم العادية
الا لوقة - كذلك أحب وردزورث كل نفسه حتى في القصائد التي لم تضمن قدرة
مستحدثة . لا بد لكبار الشعراء من نوبة راحة يغيب فيها الوحي والبيان الخلاب .
فقد نقرأ لهم عند هوميروس عشرات الابيات لا تزيدنا لمحة جمال ؛ وكذلك دانتي . بينما بندرس
الذي يستفزنا اعجابهم جميعاً يخفف احتمالي وينفد صبري بدوام ذهوله وافتتانه .
اني لأضحي أثمن مالديّ لأتمكن من وصف الاصطياف على ضفاف البحيرات حيث
يقيم وردزورث فازور معه الأمكنة التي أحب وصف ، وأحيي الأشجار التي حماها
من ضرب الفؤوس ، وأرقب قربه غياب الشمس الذي أبدع في تصويره بالألفاظ
ابداع مصورنا ترنر في تمثيله بالألوان "

لم يكن صوتاً ليهبط الى ان الاصوات الاخرى في ذلك الخطاب بل كان يرتفع ويقف على نبرة استفهام ؟ كأن الطفل القائل ، أليس كذلك ، يا أبي ؟ كان ذلك الصوت يصعد نحو مخاطب بدلاً من ان يهوي عليه ، تمازجه آنة توسّل تجعل مخالفته أمراً عسيراً

فقلت ، ورددت عزيز علي ، عزاً وعزيزاً رجلاً . الافكار في شدة آكام صغيرة تتسلق بلا تعب بيناهج عند غيره جبالاً باذخة محفوفة بالصعاب والاخطار . لم اكن ادرك له في البداية حين كان يدخلني ان يعجب به . اكبعد عقول انجلترا الحديثة هذا الاعجاب العظيم ؟ ولكني اقتنعت بالتالي ان شعراً تنظر اليه امته نظرة الاكبار وتنزله من نفوسها تلك المكانة لجدير بأن يُدرس ويُستقصى ، وان يجاهل وجوده خسران لمتعاطل الاعجاب فن لا يكتب بلا دراسة وتمرين : فمن الالمان من لا يذوق اسبن ، ومن الانجليز من لا يفهم جوتي ، ومن الفرنسيين من لا يرى في شكسبير الا فلاحاً فطناً . وما مغزى ذلك ؟ مغزاه ان لطفلاً غريراً يفضل موسيقى الرقص على ايقاعات (Symphonies) تتهدف ذات الفخامة والجلال . فن الاعجاب الصميم قائم في اكتشاف اروع الشعوب والتعمق في دراسة كتب كبرى الامم ؛ ومن بحث عن الجمال عثر عليه . وعلم ان الشعوب لا تعجب من نوابغها

إلا بمن كان حقيقاً بالإعجاب ، وان الوثنيين لم يكونوا يخدعون في حافظهم ، ولا الهنود في كاليداسا . لا يفهم الرجل العظيم من المحاباة الأولى ولا يوصلنا إلى الكمال غير المثابرة والتعب والعمل . ومن الذنب ان ما يرضينا لأول نظرة ، لا يطول الوقت نناله "

فقالت ، ولكن هناك سراً يشترك في كتمانه واذاعته جميع الشعراء وجميع الفنانين وجميع أبطال العالم سواء أكانوا ذرّ أو هنوداً أو رومان أو المان وأكاد لا أدري كيفية وصفه : هو فكرة الذكرى المبتهجة أمامهم وراءها نحن خلال كلامهم وآثارهم . هم يقرأون ما لا نقرأ في كتاب الأبدية ويؤلهون الأشياء التي نزعم صغيرة زائلة . أما سمعت غوتي ذلك الوثني الصميم منشداً يؤله السلام النازل من السماء ، حيث يقول :

" انشر السلام على الهضاب ؛
وبين رؤوس الأشجار الباسقات
لا أثر لهبوب النسيم ،
والطير نائمة في الغاب
فانتظر قليلاً ، عما قريب
ترتاح أنت كذلك "

عندما نسمع أو نقرأ هذا الا نرى الأشجار الصنوبر ووراءها المسافة الفيحاء

انتشرت فيه راحة لا تستطيع الارض ان تنيلنا اياها ؟ فكرة الدنانية اجدها ابدا في قصائده وردكورث ، وذلك السر الكامن وراء الالفاظ والاسجاع والاوزان هو هو الذي يحرك القلب دون غيره . من ذا الذي فهم الجمال الارضي اكثر من ميكلانجلو الطليانية ولسنه فهمه لانه علم انه انعكاس الجمال السماوي . الا تذكر موشحه للحبيبة فيتوريا كولونا : —

قوة الوجه الجميل تدفعني نحو السماء
ولا ارتاح على الارض راى وجهه سواه
وبه احيا متعاليا بين الارواح المصطفاة
وهي موهبة قل ان يتمتع بها الانسان الفاني "

—

"ومع المبدع الذي ابدع صنعه
وبنعمته وبمعونته ارفع البه خواطري
واوقع على انسجام صفحه افكاري واعمالي
لاحب بحرارة امراة مليحة "

—

وان ضعفت دون تحويل نظري
عن عينيك الجميلتين المتالقتين

بنور يدلني إلى سبيل الله ؛

ان خفقت وأوقفني لهيبها علمت المأجحة في قلبي

ان تلك النار النبيلة إنما هي انعكاس الشعاع الذي في

الرطم أبداً في ديار المجد والخلود "

بدت عليه آثار التعب فأجمت عن الكلام فاهتدت سكوته . ان قلوب الناس تميل إلى الصمت بعد تبادل الافكار القيمة ويخيل ان الملائكة ترفرف فوق رؤوسهم . فهم خيل إليه ان اجنحة ملائكة الحب والسلام تخيم في تلك الغرفة . نظرت اليه فبدت بثوبه الابيض كالرؤيا تتجلى في الشفق العابق وانما يدها المستسلمة في يدي اثبت لي حضورها الحسي . وأرسل الغروب المودع على محياها شعاعاً باهتاً ففتحت عيني وحدقت في مدعوسة مستغفرة . فطمع نور عيني العجيبتين كبرق خاطف بين اجفان الوطفاء . واذا بالبدر صاعداً بين الجبلين المقابلين يسكب ماءه على القرية الصغيرة والبحيرة الهادئة . لم أرَ حياتي مساءً أبهى من ذلك المساء ووجه أجمل من ذلك الوجه — وجه الحبيبة كما كان في تلك اللحظة . فشعرت بموجة حب تطفح على قلبي فقلت تملقاً " ماري ! وعينيك أعذب لك بحبي وأنا بهذا الفتون . ألا تشدين معي بقرنبا الآن من السماء ؟ ألا فلتشدو فنانا بقوة لا تسطو عليها قوة ! وعيني أفضي اليك بحبي . اني احبك

يا ماري كائناً أحب ما كان ؛ واشعر بأنك لي لأني لك "

جثوت قربه ولم أجرأ على النظر إلى عينيه . فشحبت يدها من يدي متمهلة مترددة في البدء وبالتالي مسرعة مصممة . فرفعت طرفي إلى وجهها فرأيت عليه إمارات الألم . وبعد سكوت طويل تململت ونزفت زفرة عميقة وقالت ، كفى ؛ لقد آلمتني على أن الذنب ذنبي والتبعة عليه . اقفل النافذة لأني أحس ببرد قارس كأن يداً غريبة تلمسني . ابقَ معي — لكن لا ؛ اذهب . وداعاً ؛ ونم نوماً هادئاً وابتهل إلى الله أن يشملنا برعايته . سنجتمع مساء غد ، أليس كذلك ؟ "

أواه ، أين ذهب الهناء وكيف ولّت الطمأنينة ؟ فوجبت من الغرفة وبقيت بالسيدة الجميلة إليه وحدها في الظلام . مشيت طويلاً على شط البحيرة وعيناي ترقبان نافذة الغرفة التي ضمتني وإياها منذ حين . أخيراً خبت جميع أنوار القصر وتوسط القمر كبد السماء وتفوقت أشعته عامودياً على الأرض فبدت خطوط الشرفات والجدران من ذلك القصر كأنها منارة بنور سماوي . وبقيت وحدي في الليل الأدهم : أفكاري موجعة ، وقلبي سقيم ، ونفسي منفردة لا تجد ولا يريدها في العالم أحد . شممت الأرض نفحاً والسماء كفناً يدور حولي ولم أدر أحي أنا أم ميت قضى منذ زمن بعيد

وإذ أطلت النظر إلى النجوم ذات المقل اللامعات ، وهي تتمم دورها بانتظام
مسبحة منثورة في الفضاء لتنير القلوب المظلمة وتغري النفوس الدنية . اذ ذاك
فكرت في نجمين سماويين أشرقا من عيني الكونتس ماري على أفقي الحالك السواد
وسجدت في فؤادي عاطفة الشكر والحنان لفتاة العذبة وملكي الحارس الأمين

الذكرى الأخيرة

كانت الشمس مشرقة على رؤوس الجبال وقد دخلت أشعتها من النافذة ساعة استيقظت من رقادي. أهي الشمس التي شيعت غيابها البارحة بنظرات الرجاء والغرام عندما انبسط فوق كبد صديق يبارك اتحاد قلبينا، ثم هبطت وتوارت لمضجع الآمال؟ ها هي الآن مشرقة - تأتي إليّ كطفل يهنئني بعيد ميلادي. لقد عادت إليّ هيولتي المعتادة وتنبهت فيّ الثقة بالله وبنفسي؛ ترى أأنا هو ذاك الفتى الذي ارتاح على الفراش منذ سنوات قلائل مضى الجسد خائر الروح؟

ما حالنا لولا سنة الكرى؟ نحن نجهل إلى أي العوالم يمضي بنا هذا الرسول الليلي حينما نستسلم له جفون مغمضة وليس من يتكفل بفتحها في الغد ليعيدنا إلى يقظة العمر. لقد تعلقت الآن بأهداب الشجاعة والإيمان يوم تلقاه الصديق المجهول فنومة النومة الأولى؟ ولولا ما فطرنا عليه من ثقة واتكال لأبى الواحد منا، رغم التعب والنصب، أن يغمض عينيه بمحض إرادته ويدخل مملكة النوم. أما هذا الخفق والشعاع تستند علينا وطأتها فلجأ إلى

قوة عليا ونرضخ للنظام البديع النافذ في جميع الكائنات ؟ فنسعد ايان الرقاد بحل الروابط التي تقيد ذاتنا الأبدية الخالدة بذاتنا الأرضية الزائلة

كل ما جرى بالأمس وكان في ذهني سببها كضباب الماء ، أصبح الساعة جليا.

شدت بتقاربنا الواحد من الآخر كأننا أخ وأخت ، أب وابن ، أو خاطب وعروسه — وأننا لا يحول بيننا انفصال . بحثت عن معنى ما يدعوه البشر حبا" ووددت ، كما يدعو ، ان أكون أخاها أو أباها او اي قريب لها . وددت ان اهتدي إلى السبب يعرفني الناس به عندها لأن العالم ينكر من لم يحمل اسما وكنية . هي قالت انها تحبني حبا" طاهرا" يكنه قلبها للنوع الانساني بأسره وهو مورد كل عجب وصفو الحب . فيما خافت وتألمت لسماع اعترافي ؟ ولهذا الألم وذاك الخوف اللذان ألقيا في الباحة هما اليوم في عينيها حجة راسخة على عاطفة تخصني بها . لماذا نحن نسعى في تفهم نفوس الآخرين ونفوسنا مغلقة على بحثنا ؟ ولماذا يتأثرنا ما لا نحن نميزه في الطبيعة والأفراد والقلوب ؟ أما الأشخاص الذين نعرفهم بجميع الحركات النفسية والبواعث الفكرية فلا ننفعل بتأثيرهم ولا نفيدهم التفاتا ؛ ولا شيء يحلي

البهجة والرونق من محيّا الحياة كزعم أولئك الماديين الذين يشرّحون المعاني ويحللونها تحليلاً علميًا ليتفهموا عجائب النفوس وأسرار الأفئدة . إنّ يا كلّ كائنٍ غموضًا يستحيل ادراكه ويتعذّر تعريفه : أهو الإلهام ، أو القدر ، أو الخلق ؟ لا أعرف يعني معنى ذلك الغموض الراسب فيه ولا الباحثون إلى تفسيره مقنع مرضيّ . وهكذا كلّ ما حولي بالأمس على القنوط صار اليوم ينبوع أمل . وما زالت قلبي أعلّله حتى تبدّدت الغيوم من حول مستقبلي السعيد

خرجت إلى الهواء الطلق وإذا برسولٍ يحمل من الكونتس كتابًا . عرفت خطّ يدها الجميل الزين فرجوت في تلك اللحظة أعزّ ما يرجوه العاشق . وبالسرعان ما خابت آمالي ! سألتني في الرسالة ان لا أزورها بعد الظهر لأنها تنتظر ضيوفًا من المدينة ؛ ولم تخطّ كلمة مودّة أو كلمة تطمين ، وانما أضافت حاشية معناها ان الطبيب يأتي غدًا فاللقاء إلى بعد غدٍ

يومان يمزّقان من كتاب حياتي ! ويا ليتهما لم يكونا فلا احتملها فوق أسى كسفٍ سجين مظلم . عليّ ان أصبر عليها وليتني أخذت أفي التصدّق بها على ملكٍ عوجل بالخلع عن عرشه ، أو في التبرّع بها لمتسوّلٍ يدور حول

أبواب المعابد . أطرقتُ وطال اطراقي ؛ فذكرتُ صلاة الصباح لأن اليأس أخو ما يكون الى الايمان ؟ وكالفارس يرى الهوة امامه فيحكم شدّ اللجام ، قلت « فليكن ما لا مناص منه ! ولأقبلنّه طائعاً دون تذمّر فالله لم يخلقنا للغم والمرائي »

ولماذا لا أتعزى بهذه السطور التي خطّتها يدها ؟ ولماذا لا أتغذى بأمل الاجتماع القريب ؟ سَلْ من عالج السباحة يشرْه بوجوب وضع رأسه فوق الامواج ، والاّ فاغرق ولا تدع من فمك وعينيك للماء سبيلاً . ان لم ترضها كحياة واجب ، فلتقبلها وتعالجها كفنّ . كلّنا هنا أطفال ؛ ولكن ما أغباه لطفلاً يستسلم للغضب أو يركن الى العبوس كلما شعر بألم أو حبط له مسعى ! وما أحبه لطفلاً ان بكى طلت شمس السرور مشرقة في عينيه كزهرة ناضرة وراء غيث نيسان ، فلا يطول حتى تنفتح أوراقها وينفتح لها لأن حرارة الشمس تمتص غدر قطرات المطر

وعادت الي خاطرة فبدأت أنفذها : ذاك اني طالما تمنيت لو دوّنت كلمة كلمة ما استمتعت عليه من جميل الآراء . وها قد حان الوقت الملائم . فرفعت اليوميات لأستعيد ما تعاقب اللقاء بحيّاها آثارها .

وكنت قريباً منها جداً كأني ممسك بيدها

وما أغلى تلك الصفحات لديّ! كم من مرة قرأتها وأعدت قراءتها! هذه سطور سعادتي الغابرة؛ يطل من بين سطورها عليّ وجه معروف وينظر إليّ حائراً وسكوته أفصح من الفصاحة. يتلو عليّ ذكريات الأنس والهناء فيرجعني إلى الماضي وانظر على بحموعة حوادثه كالام على قبر ولدها الميت منذ أعوام ولا رجاء لا بضمه إلى صدرها مرة أخرى — هذه العاطفة تميت حزناً، ولكن في الحزن غبطة يعرفها الذين أحبوا كثيراً وتألموا كثيراً

سل الوالدة عما تشعر به عندما تذكر على وجه ابنتها العروس نقاباً البتة يوم زواجها، مقدرة في زوجها الذي أخذته المنية فجيعة منه. سل الأب عما يشعر به ازاء وردة ذابلة جاءت من حبيبته المتوفية وكان أهداها اليها قبل ان يفرق بينهما العالم. كلاهما يبكي وليست دموعهما دموع فرح ولا دموع ترح، بل هي دموع ضحية قدمت الامها لله بخوراً بعد فناء الآمال، وقنعت بالايمان والثقة بحكمة غير المتناهية

ولنعد إلى التذكارات التي تجعل الماضي حاضراً: انقضى اليومان وجوانحي تختلج حبوراً كلما دنت ساعة فأذنت بقرب اللقاء. وقد كنت

المركبات في اليوم الأول وجاء النوتي من المدينة فامتلأ القطر بالضيوف والزائرين وخفقت فوق قبته الأعلام الأدلوية وصدحت الموسيقى في ساحاته. وعندما أرخى الظلام سدوله ازدحمت الزوارق والقوارب في البحيرة وتردّدت على صفحة الماء أصداء الأناشيد والأغاني. فأطلت الأضواء كعيون الوحوش مضيئة من نافذتي. وظلت الحركة والجلبة في القطر إلى ما بعد ظهر اليوم التالي حيث عاد الضيوف أدراجهم وآخر مركبة عادت في المساء إلى المدينة كانت مركبة الطبيب

عندئذٍ فاق صبري وفكرت بهاجم وحدها؛ أشعر الآن تفكر في وتتمنى وجودي معك. أأترك ليلة أخرى تمرّ دون أن المس يدها فوقها بأناملي الناعمة البلاتينية الجديد؟ أرى في نافذتي ندماً فهل أدعك هناك بلا رفيق؟ ألا يصح أن أتمتع ولو هنيهة بحضورها العذب؟ ... وجدتني فجأة أقوم بالي وقد ارتفعت يدي لدق الجرس. فتوقفت قائلاً الآن أستحقّ الضعف والتبذل! إن أنا دخلت عليها وقفت أمامها خجلاً كرقيق يتوارى بالظلام. أليس صباح غدٍ؟ سأعود إلى البطل استحق أن تضع بجبينها إكليل الحب" جاء الصباح وذهبت إليها. أواه! لا تقولوا، إن الوحيدين، ان الروح تحيا بلا جسد! الحياة الحقيقية والسعادة التامة لا يجتمعان إلا حيث

يتوحد الروح والجسد فيصيران روحًا جسديةً وجسدًا روحيًا . الروح بلا جسد شبح ، والجسد بلا روح جثة . وهل تخلو زهرة الحقل من الروح ؟ أليس الزهر تبرز بقدرة الفكر الباري الذي ينيلها الحياة والجمال ؟ ذلك الفكر هو روحها ولكنه أبكم فيها بينما هو ناطق في الانسان . الحياة الحقيقية حياة الروح والجسد معًا ، والاجتماع الحقيقي اجتماع الارواح والاجساد جميعًا . أما العالم الذي عشت فيه سعيدًا يومين كاملين فقد اضمحل الآن كالخيال ، أو كتنهيدة العدم ، لأني أعرف حقيقة أراها بالروح والجسد

تمنيت ان أضع يدي على جبهتك وألمس أجفانك لأتثبت من وجودها بالذات وليس بالصورة الحائمة حول روحي ليلة ذكراك ، بل كشخص غير شخصي يحبني ويثق بي ! شخص ألتف به تعتي بنفسي ؛ بعيد عني إنما أقرب الي من نفسي وبدونه ليست حياتي بالحياة ، ولا موتي بالموت ، وما أنا سوى ضباب لذات ضائع في الفضاء غير المتناهي

استغرق عيدك طويلاً أزهاري وأفكاري فلم تتكامل الحياة في ولم يعد يرهبني الموت لانه لا يقوى على افناء هذا الحب العظيم إنما هو يكسبه

متانة وثباتاً

ما اعذب السكوت قربي وقد تجلت نفسي في وضع أعضائي وتجمع هيئتي وتتابعت النداءات في عينيّ! بقيتُ صامتاً وشيء في يرمقني كأني سمعتُ تهمساً في قلبي "إنك تؤلمني". ثم بعد هنيهة، هل اجتمعنا مرة أخرى؟ كن هادئاً ولا تبالِ؛ لا تسل ولا تستفهم؛ اني أحب بك فلا تسخط عليّ". كل هذا قرأته في عينيّ ولكني لم تتفظ بكلمة. وفتحت شفتيّ أخيراً وقالت وهذا يتهدج "ألم يصلك كتاب من الطبيب؟"

أجبتُ "كلا"

فقالت "الأفضل إذن ان تسمع الخبر مني. اعلم يا صديقي اننا نلتقي اليوم للمرة الأخيرة. فلنفترق بلا تذمر. لقد أتيت إليك عن جهل إذ كيف أعلم ان للنسيم العليل من القوة ما يسقط [illegible] عن الزهرة؟ كنتُ قليلة الخبرة فلم أتوقع ان تؤدي اليك فتاة بائسة نظري سوى عواطف الرحمة والاشفاق. ولقد انزلتك على الرحب والسعة لأنك صديق منذ أعوام طويلة، وسعدتُ بلقياك — لماذا اخفي الحقيقة؟ — لأني كنت أحبك. إنما المجتمع لا يفهم هذا الحب ولا يسمح به. لقد فتح الطبيب عينيّ وأخبرني ان حكايتنا تُقهقه [illegible] أندية المدينة؛ وكتب إليّ أني الأمير [illegible] ان أقطع كل علاقة بيني وبينك. ان أتفي لأمرك شديد. ولكن قل لي انك تصفح عني، ولنفترق صديقين كما التقينا"

قالت هذا وأسبلت اجفانها لتخفي عني دموعها فأجبت : لي يا ماري حياة واحدة وهي قربك ، وارادة واحدة وهي ارادتك . أحبك بحرارة الحب ورقته ولكني لست أهلاً لك . انت ارفع مني مقاماً وشرفاً وطهراً فكيف أرجو ان ادعوك يوماً زوجتي ؟ وليس ثمت من وسيلة أقوى لتيسير سعادتنا في سبيل الحياة . ماري انت حرة وانا لا أريد ان تضحي لاجلي شيئاً ما . العالم واسع واذا أردت الفراق فلن نجتمع . ولكن ان شئت بحبي لي وبانك خاصتي فاعرضي عن المجتمع واتركي احكامه البلهاء ، ودعيني احملك على ذراعي الى الهيكل فأجتو هناك واقسم ان اكون لك في الحياة والموت "

فأجابت متهللة ، تمنى المستحيل ولم يا صديقي . لو شاء الله ان يجمع بيننا لما بعث اباك بهذه الاوجاع التي تجعلني طفلة عاجزة باكية . لا تنسَ ان ما ندعوه قضاءً وقدراً ، أو ظروفاً ، أو فروقاً اجتماعية انما هو في الحقيقة ارادة الله ، ومن طمع في التغلب عليها فقد عصى الله وكان غراً وغبياً ان لم يكن شاذاً اثيماً . إنما الناس على الارض كالكواكب في عرض الفضاء يسلكون سبيلاً خطها يد الله فان تواجه فيها اثنان فذاك الهين ثم يفترقان سريعين . وباطلاً يحتجان ويقاومان فنظام الكون باقٍ على ما هو الى الابد . أنا لا ارى موضع الخطأ في حبي لك . غير ان الآخرين يرونه فعذبي يا صديقي . ولنمتثل بتواضع وايمان "

كان صوتي هادئاً يئن فيه الألم العميق ؛ ولم أدع ان استغلى عن الجلاد منذ الخطوة الأولى ، فضبطت انفعالي ما امكن لئلا اثيره بجملة تزيد في ألمه وقلت ، تقولين ان هذه مقابلتنا الأخيرة فدعيني أعلم لمن نضحي ذواتنا . لو خالف هتلر نظاماً علوياً لامتلأت محكمة بتواضع وايمان . ولكن الحب هو ارادة الروح السامية وتسخير تلك الارادة هو هو انكار ارادة الله . ~~[illegible]~~ طالما حاول الانسان مخادعة الله كأن دهاءه كفيل بتضليل الحكمة الربانية . وهذا بعض جنون نصيب من اقتحمه نصيب قزم يبارز جباراً فليس أمامه من عاقبة سوى ان يُسحق ويتلاشى . لا شيء يقدم في وجه حبنا غير التقوّل والافتراء ؛ فما هو التقوّل والافتراء ؟ أنا اهدم أنظمة المجتمع ، احتمي حتى في تشعبي وارتباكي العالمي لأن الجسم العليل لا يُشفى بفيض العلاج المركب . وبدون الفروق الاجتماعية والاصطلاحات والعادات التي كثيراً ما نضحك منها يستحيل ترابط البشر فيما بينهم والتعاون لبلوغ غاية ، وجدنا على الأرض لنتشهى اليد . فيتحتم إذاً تضحية الشيء الكثير لتلك الآلهة الكاذبة ؛ وكأهل اسبا الذين كانوا يرسلون كل عام سفينة مشحونة بالشبان والفتيات يقدمونهم قرباناً علينا ان نتحمل الضحايا على هيكل الحيوان المسيطر على تركيب نظامنا الاجتماعي ولكن يؤلمني انه ليس من قلب حساس رقيق إلا تعذب وتنطر ، ولا من رجل ذي إدراك وشعور إلا وأرغم على إطباق

جناحي حبه ليسبحه في الفضاء الاتفاق الرفيق . وذلك حادث ابدًا قديم جديد .
أنت لا تعرفين المجتمع . ولكني لو قصرت الكلام على اصحابي لأسمعتك من العجائب
ما يملأ أسفارًا . أحب احدهم فتاة فأحبته هي الأخرى ، ولكنه كان فقيرًا وكانت
هي غنية ، فتخاصم الأهل والمعارف وتقاذفوا السباب والشتائم وكانت النتيجة
انشقاق القلبين . لماذا ؟ لأن المجتمع يرى انه من منتهى الحطة والذل ان
ترفدي السيدة ثوبًا مصنوعًا من صوف النبات الامريكي وليس من نسيج الدودة الصينية
، أحب آخر فتاة فأحبته أيضًا . ولكنه كان بروتستانيًا وكانت هي كاثوليكية .
فقامت قيامة الكهنة والامراء وانشقت القلبان . لماذا ؟ لأنه حصلت مناوشات
سياسية بين فرنسيس الخامس وفرنسيس الاول وهذي الثانية منذ ثلاثة قرون
، وأحب غيره فتاة فأحبته هي أيضًا . ولكنه كان شريفًا ولم تكن هي ذات
حسب ، فتصلب كبرياء اخوته وألهبت الغيرة اخواته وانشقت القلبان . لماذا ؟
لأن جنديًا قتل آخر كان يتهدد حياة الملك وعرشه منذ عشرات أو مئات الأعوام فأغدق
عليه مولاه الألقاب والرتب ؛ وها ان حفيده اليوم يكفر عن ذلك الدم المسفوك
بخلق نخوة الفساد وصحبة ترعى في الظلال
، يقول علماء الاحصاء ان عدد القلوب المنفطرة يداني عدد الثكالى .

وأنا أميل إلى التصديق؛ لماذا؟ لأن المجتمع يكيد كل حب بين غريبين ان لم يرتبطا برباط الزواج. فان أحبت فتاتان رجلاً فحسب إحداهما، وان أحب رجلان امرأة تحتم ان يضحي أحدهما أو ان يضحيا معاً. لماذا؟ لماذا يحظر على رجل حب فتاة ليس له ان يقترن بها. أكل الحب في ان يهرب الرجل بالمرأة كأنه سرقة عنيفة وحشية. أراك تغمضين عينيك فأدرك اني أطلت الكلام. لقد دنس المجتمع أقدس معاني الحياة، فاستمعي يا ماري. فلنستعمل لغة العالم عندما نكون فيه متكلمين بمثلين فاعلين. ولكن فلنحفظ بعيداً عنه سراباً طاهراً يختلي فيه قلبان صادقان ليتكلما بلغة الحب والاخلاص دون ان يتأثرا بغضبه أو يكترثا لصراعه. والمجتمع يكبر هذه المقاومة العنيفة من قلب أدرك حقوقه وعرف عظمته فأثرها على الاحكام البلاء. لا بأس بالاصطلاحات والعادات في حال اعتدالها لأنه حسن ان تعرش اللبلابا بالوف الاغصان والحبال على الجدار القوي. ولكن حذار من الافراط لئلا يجد البيت الطفيلي منفذاً إلى داخل البنيان فينقد إحكام اجزائه ويهدم أركانه. ان حبنا لا يضر شراً ولا يؤذي أحداً بل يسعد نفسينا ويرفقنا إلى عرش مبدعنا. فاتبعي مشورة قلبك واصغي إلى صوت ضميرك ثم اجيبي. ماري كوني لي! اعلمي ان الكلمة المرتقبة الآن على شفتيك تقضي علي وعليك انما هي حكم لي ولكِ بالسعادة أو بالشقاء"

صمتت وضغطت على يدها فانفضت على يدي بأنامل ملتهبة وقد بدا التأثر يبدو وركاتها . والسماء الزرقاء المنشورة فوق رأسي لم أرها حياتي على جمال ظهرت فيه الآن وقد هدأ الزوبعة بالهجوم وانفتحت الا الغيوم واحدة بعد اخرى

ثم قالت كمن تتمتم "أجيل النظر، الأبي، ولماذا تحبني ؟"

أجبت "بل سلي الطفل لماذا ولد، والوردة لماذا أزهرت، وسلي الشمس لماذا بزغت فأنارت الكون! لماذا احبك يا بنية ؟ لأنه يجب ان احبك . وان شئت اسرارا فهي الكتاب الذي تجبين تتكلم لأجلي : —

أفضل الناس يجب ان يكون أعز الناس الينا دون ان نعبأ بما يلحقنا إلى سبب من ربح وخسارة، أو سعادة وشقاء، أو شرف وذل، أو ثناء ومذمة، أو أي أمر من الامور . احسن الاشياء واشرفها يجب ان يكون أعزها الينا لا لسبب آخر سوى انه الأحسن والأشرف . وعلى هذا المبدأ ينظم المرء حياته الداخلية والخارجية لأن بين الاشخاص تفاوتاً فيكون هذا خيراً من ذاك وفقاً لمقدار ما يظهر فيه من الخير الأسمى الذي يتجلى في اذا ما اكتمنه في غيرها . والفرد الذي يكثر فيه تجلي الخير الأسمى هو الاحسن، والذي يقل فيه ذلك التجلي هو الأقل حسناً . فعلينا ان ننتبه لهذا الاختلاف بين الناس حتى اذا اهتدينا إلى خيرهم

أحببناه وأعززناه والتصقنا به طلبًا للاتحاد الدائم »

« وأنتِ، ياماري، خير من عرفت لذلك احبك وانت عزيزة علي.

وكلانا يحب الآخر. فقولي الكلمة الواحدة التي تكبر وتحيا فيك - قولي أنك لي! لا تخوني قلبك ولا تخدعي عواطفك. أعطاك الله حياة معذبة ثم ارسلني اليك لأخفف عنك؛ فألمك ألمي، وسنحمل هذه الآلام معًا بشجاعة كما تخترق السفينة العظيمة عواصف الحياة وأعاصيرها تحمل الأثقال الباهظة وتوصلها إلى الشاطئ الامين. تكلمي يابنية وضعي رأسك على كتفي »

فهدأ روعها وخفض الاحمرار وجنتيها كما تخفض غمرة الشفق رؤوس الجبال، ثم فتحت عينيها الباقتين كشموس منيرة وقالت: « انا لك. انا خاصتك لأن تلك مشيئة الله. اقبلني كما أنا: فأظل لك ماهيتي وليجمعنا الله في حياة أبهج من هذه وليجازك عني خيرًا! »

ووضعت قلبي قرب قلبها ليختفقا سويةً، وأوقفت شفتاي الكلام على الشفتين اللتين نطقتا بدوام سعادتي، وأوقف الزمان دورته وتلاشى العالم حولنا ولم يمكث فيه غيرنا مدة خلسة دهرًا - وهو غرام وهناء. ثم نزفت زفرة عميقة هامسة: « اغفري لي كل هذه السعادة! والآن

اذهب ودعني وحدي لعلنا نلتقي مرة اخرى يا مديتي وحبوبي ومسعودي غبطتي !"

. . . . . .

هذه آخر كلمات سمعتها منه . عدت الى غرفتي ونمت نوما طويلا مثقلا بالاحلام المزعجة . وبعد انتصاف الليل دخل الطبيب غرفتي وقال : "لقد انتقلت ملكنا الطاهر الى حضن خالقه . وهذه وديعته منه اليك"

فضضت الكتاب فوجدت فيه ذلك الخاتم المنقوش عليه "كلمة الله" وكانت اعطتنيه في طفولتي ثم رددته اليها ؛ وكان ملفوفا بورقة كتبت عليها الكلمات التي فهمت بعد : "كل ما لك فهو لي — خاصتك ، مارى"

جلست وجلس الطبيب وغرقنا في بحار عقلي يعرفه كل من ابتلي بهم لا رجاء بعده . اخيرا نهض الشيخ ومد يده قائلا — "نحن نلتقي اليوم للمرة الاخيرة : أما انت فعليك ان تغادر المكان " واما انا فأيامي معدودة . غير اني اود ان ابوح لك بسر حملته دفينا في صدري طول الحياة ولم اطلع عليه احدا ، وقد آن لي حاجة ماسة الى افشائه ؛ فاصغ الي . ان الروح التي فارقتنا روح شريفة طاهرة والقلب الذي غادرنا قلب صادق عميق . عرفت قلبا آخر كهذا وروحا كهذه الروح — بل ابهى منها ، هي روح والدتك . عرفت والدة هذه الفتاة قبل زواجها

فأحببتك وأحببتني . كنا فقيرين فأنت أجدّ وأكدّ لأنقذك من بحار الفقر والفاقة ولأصل إلى مكانة اجتماعية تليق بي وبك . وقبل أن أدرك غايتي اجتمع بك الأمير الشاب وأحبك . ولما رأيت أمير بلادي مولعًا بك يبذل ما في وسعه ليعلي شأنك ويرفعك في النبيهة البائنة ، إلى مرتبة الإمارة — شعرت بوجوب تضحية سعادتي لأجلك لأن حبي لك أقوى من حبي لنفسي . فغادرت البلدة وزرت لأخطابًا فيه حللتك من قيود وعودها . ولم أرها بعد ذلك إلا وهي على وشك الموت عقب ولادة ابنتك هذه . يمكنك بعد هذا الإقرار أن تدرك مقدار حبي لحبيبتك وإني كنت أحاول إطالة عمرها يومًا فيومًا لأنها كانت الشخص الوحيد الذي يربطك قلبي بالأرض

" والآن ! سر في طريقك يا بني واصل الحياة كما اشتهيت ، ولا تأسف يومًا واحدًا في القمر الفقيم . عد المحتاجين من إخوانك البشر ، وأحبب جميعًا ، واشكر الله الذي أنعم عليك في هذه الحياة الجواد بقلب لقلبك ، وحب كحبك ، وروح كروحك — وإن فقدتك !"

نقلت ممتلئًا كما يا الله" . وافترقنا افتراقًا لا يمكن بعده من لقاء

. . . . . .

لقد مرّت الايام والاسابيع والشهور والاعوام سابحة في بحر الابد
وانني صار لي أرضاً غريبة وبلاد الغرباء أصبحت وطني . لكن حبّ فتاتي لا يزال
حيّاً فيّ . وكما تسقط دمعة القلب على مياه البحار كذلك غرق حبي لأني في بحر حبّتي للأبد
بأسرها - حبي الذي يشمل ملايين من اولئك الغرباء الذين لا يعرفونني
وقد شغفت بهم منذ حداثتي

- - - - - - - - - - - -

انما في أيام الصيف الساكنة الحارة كهذا اليوم ، عندما
بالغابة الخضراء في حضن امي الطبيعة ، وتتوه بي افكاري فلا أعود أدري ما إ
كان في العالم أناس غيري ام انا وجدت وحدي على الأرض ، اذ ذاك تحدث ثورة
في مقبرة حافظتي وتنهض الذكريات السحيقة من مدافنها وترجع قوة الحب
القديم قابضةً على فؤادي بشدة ، فأنادي تلك الفتاة الجميلة ، فتأتي إليّ
مرةً اخرى بعينيها العميقتين اللتين لا قرار لهما . عندئذٍ يتجمع حبي
ويغرق في حبي لشخصها - لشخص ملكي الخاص . فتخرس افكاري وتجثو
أمام سرّ الأسرار الغامض ، سرّ الحب المتناهي وغير المتناهي

(تمت)

تم طبع هذا الكتاب سنة ١٩٧٣
على مطابع ا. بدران وشركاه - بيروت - لبنان

مؤسسة أ. بدران وشركاه
للطباعة والنشر
بناية العسيلي – شارع السور
ص.ب ٢٦٧٦ – تلفون ٢٢٩٥٢٠
بيروت – لبنان

٥٠٠ ق. ل.

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library
32101 071970717
(NEC)
PT2436
.M45
Z537
1973